أسباب النزول بين التحقيق والوهم

عبدالله محمد سعيد الخولاني*

تاريخ تسلُّم البحث: 2017/5/14م تاريخ قبول النشر: 2017/8/27م

الملخص

تبحث هذه الدراسة في موضوع أسباب النزول، وهي بعنوان: (أسباب النزول بين التحقيق والوهم). إذْ إن معرفة سبب نزول آيات القرآن يعد خير سبيل لفهم معاني القرآن، وكشف الغموض الذي يكتنف تفسير بعض الآيات، ويرفع الإشكال ويحسم النزاع، ويعين على معرفة المبهم من القرآن.

بيد أن بعض المفسرين توسعوا في ذكر أسباب النزول في كتبهم فأثبتوها ولم ينبهوا على مراتبها قوة وضعفاً، حتى توهم الكثير من الناس أن آيات القرآن لا تتنزل إلا على أسباب.

لذلك تحاول هذه الدراسة التفريق بين ما هو من أسباب النزول على التحقيق، وما هو من أسباب النزول على الوهم.

فما كان من أسباب النزول على التحقيق: تضمن معرفة سبب النزول الذي يقوم على صحة الرواية إلى رسول الله ، صلى الله عليه وسلم . سندا ومتنا، وبيان صيغ سبب النزول، أو أسباب نزول وردت فيها روايات متعددة.

أما ما كان من أسباب النزول الذي جاء بطرق وهمية، فقد تناول الباحث نماذج منها ، وظهر أن بعضها يُوقِع القائل بها في خطأ تاريخي: كأن يكون أصلها إخباراً عن وقائع ماضية، أو قصص لأمم غابرة، أو في غير زمن أصحابها.

وظهر أن أصل بعضها أخبار ضعيفة أو مكذوبة، أو بعيدة المعنى.

المقدمة:

الحمد لله الذي نزل على عبده الكتاب{بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ. مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ} [آل عمران:3-4]، نحمده تعالى أن جعلنا مؤمنين بما أنزل، وجعلنا ممن اتبع الرسول فنسألك ربنا أن تكتبنا مع الشاهدين.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، جعل القرآن الكريم بياناً للحق، ومنهجاً يسترشد به الخلق، وشاهدا على سائر الكتب السماوية ومهيمناً عليها، قال الله: {وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ} [المائدة:48].

وأشهد أن محمداً عبدالله ورسوله الذي أمر الله بتصديقه، والتصديق بجميع ما جاء به الأنبياء والرسل قبله، فقال: {قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ، فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ، صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ.} [البقرة:136-138] القائل . صلى الله عليه وسلم . عن القرآن «إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواما ويضع به آخرين»[1]، فجاء بخاتم رسالة، يصدع بالدلالة، الهادي للأمة، الكاشف للغمة، الناطق بالحكمة، المبعوث بالرحمة، رفع أعلام الحق، وأحيا معالم الصدق، ودمغ الكذب، ومحا آثاره، وقمع الشرك، وهدم مناره، ولم يزل يعارض ببيناته المشركين حتى مهد الدين، وأبطل شبه الملحدين، صلى الله عليه صلاة لا ينتهي أمدها، ولا ينقطع مددها، وعلى آله وأصحابه الذين هداهم وطهرهم، وبصحبته خصهم وآثرهم، وسلم تسليما كثيراً.

* أستاذ مشارك – قسم الدراسات الإسلامية – كلية الآداب – جامعة حضرموت.

وبعد:

فإن الله . جل جلاله . أنزل القرآن الكريم ليكون كتابا (عظيماً، وذكراً حكيماً، وحبلاً ممدوداً، وعهداً معهوداً، وظلاً عميماً، وصراطاً مستقيماً، فيه معجزات باهرة، وآيات ظاهرة، وحجج صادقة، ودلالات ناطقة، دحض به حجج المبطلين، ورد به كيد الكائدين، وأيد به الإسلام والدين، فلمع منهاجه، وثقب سراجه، وشملت بركته، ولمعت حكمته.)[2].

ولما كان القرآن بهذه الأوصاف، فقد (جاء هادياً إلى ما به صلاح الأمة في أصناف الصلاح، فلا يتوقف نزوله على حدوث الحوادث الداعية إلى تشريع الأحكام)[3]، بل كان القرآن يتنزل ابتداءً: بعقائد الإيمان، وواجبات الإسلام، وشرائع الله . تعالى . في حياة الفرد، وحياة الجماعة، وكثير من الآيات التي اشتملت على الأحكام والآداب، التي قصد بها ابتداءً هداية الخلق، وإرشادهم إلى ما فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة، دون أسباب نزول.

بيد أنا نجد في بعض آي القرآن إشارةً إلى الأسباب التي دعت إلى نزولها ونجد لبعض الآي أسباباً ثبتت بالنقل دون احتمال أن يكون ذلك رأي الناقل، فكان أمر أسباب نزول القرآن على هذا المفهوم دائراً بين القصد والإسراف، وكان في غض النظر عنه، وإرسال حبله على غاربه . خطر عظيم في فهم القرآن.

ومن خلال تتبعي لبعض كتب التفسير في أثناء تدريسي، وقفت على بعض أسباب النزول فيها، واستدعاني ما رأيت من توسع في ذكر أسباب النزول . عند بعض المفسرين . مما ليس لها أصل يعتمد عليه؛ حتى كاد أن يوهم الناس أن كل آية من القرآن نزلت على سبب.

فعزمت أن أبحث في موضوع أسباب النزول تحت عنوان: **(أسباب النزول بين التحقيق والوهم).**

فجاءت هذه الدراسة لتبين أن الله . عز وجل . أنزل القرآن الكريم لمقاصد وأغراض عامة، وأن بعض الآيات ثبت لها أسباب نزول بالنقل الصحيح، وأنه ليس من أسباب النزول ما كان من القرآن يتنزل ابتداء، ولا ما كان من باب الإخبار عن أحداث تاريخية سالفة، أو أصلها إخبار عن وقائع ماضية، أو ذكر قصص لأمم غابرة، أو أحداث في غير زمن أصحابها، وغير ذلك.

موضوع الدراسة:

موضوع هذه الدراسة تهتم بالتفريق في أسباب النزول بين ما كان له سبب نزول على التحقيق، وما كان له سبب نزول على سبيل الوهم، لا يرتقي إلى أن يكون سبباً، وقد وسمتها بـ **(أسباب النزول بين التحقيق والوهم).**

أهمية الدراسة:

تكمن أهمية الدراسة في أنها تناولت الكلام عن أسباب النزول من حيث:

1- إن بعض المفسرين توسعوا في ذكر أسباب النزول في كتب التفسير، فأثبتوها في كتبهم ولم ينبهوا على مراتبها قوة وضعفاً، حتى توهم الكثير من الناس أن آيات القرآن لا تتنزل إلا لأجل حوادث تدعو إليها.

2- إن من الإفراط أن نجعل من أسباب النزول ما هو من قبيل الإخبار عن الأحوال الماضية، والوقائع الغابرة.

3- أن القرآن الكريم كان يتنزل ابتداءً، بعقائد الإيمان، وواجبات الإسلام، وشرائع الله تعالى في حياة الفرد، وحياة الجماعة.

4- إن كثيرا من الآيات التي اشتملت على الأحكام والآداب، التي قصد بها ابتداء هداية الخلق، وإرشادهم إلى ما فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة، دون أسباب نزول لها.

الدراسات السابقة:

لم أقف . بعد بحث وتتبع . على دراسة بحثت بهذا التوصيف **(أسباب النزول بين التحقيق والوهم)**، وكل ما جاء من دراسة تناولت أسباب النزول، سرداً لأسباب النزول، أو في موضوعات تناولها أصحابها بصورة عامة دون تنبيه لما يسير عليه الكثير من المفسرين الذين أولعوا بسرد الأسباب دون تفريق بين ما هو من قبيل التفسير، أو ضعف في الرواية، أو غير ذلك مما هو سبب نزول على الحقيقة، ولذا عزمت أن أتناوله بالدراسة؛ لغلبة ظني أنه لم يدرس، ولم يتناوله أحد بالدراسة بهذا التوصيف.

أهداف الدراسة:

تستهدف الدراسة:

1- بيان الفرق بين ما هو من أسباب النزول على التحقيق، وما هو من أسباب النزول على الوهم.

2- التنبيه إلى أن أسباب النزول بحاجة إلى تمحيص،

3- إضافة مبحث من مباحث أسباب النزول إلى المكتبة الإسلامية؛ ليكون دافعاً لطلاب العلم أن يتوجهوا لدراسة أسباب النزول، وتنقيحها من شوائب الوهم.

حدود الدراسة:

تقتصر دراستي لهذا الموضوع: في الكلام عن تعريف أسباب النزول، وطرق معرفتها على التحقيق، وطرق معرفتها على الوهم، مدعمة بالأمثلة والتطبيقات.

منهج الدراسة:

سلكت في بحث هذا الموضوع عددا من المناهج البحثية على النحو الآتي:

1- منهج الاستقراء ، وذلك بتتبع بعض كتب التفسير، وكتب علوم القرآن، و كتب الحديث، وغيرها، والنظر فيما وقفت عليه من أسباب النزول فيها، وأقوال أصحابها، وأخذ الأمثلة منها والتطبيقات.

2- المنهج التحليلي، وذلك بدراسة النص المنقول . التطبيقات . وتحليله، والنظر في متعلقاته من حيث: موافقته، أو واقعيته، أو مخالفته للقواعد والضوابط، وكذا النظر في صحة الروايات من عدمها، وإثبات درجتها من حيث الصحة أو الضعف، ليتقرر سبب النزول هل هو على التحقيق أو على الوهم.

3- المنهج التوثيقي، وذلك بتوثيق النصوص المنقولة إلى مظانها؛ حيث عزوت نص الآيات القرآنية إلى سورها، ونسختها من مصحف المكتبة الشاملة، وخرجت نصوص الأحاديث النبوية من مصادرها الأساسية . كتب الحديث إلا ما جاء من بعض أحاديث مصدرها كتب التفسير أوردتها أمثلة لاستعمالات المفسرين لها. ثم نسبت الأقوال إلى أصحابها في مصادرها دون وساطة . ما استطعت .

مخطط الدراسة:

وقد بحثت هذه الدراسة في (مقدمة، وتمهيد ومبحثين، وخاتمة، وإلحاقه بمصادر البحث)

فيتناول الباحث في المقدمة: الافتتاح، وموضوع الدراسة، وأهميتها، والدراسات السابقة لها، وأهدافها، وحدودها، ومنهج البحث فيها، ومخططها.

وفي التمهيد: تعريفات أسباب النزول، ومفهوم التحقيق.

وفي المبحث الأول: طريق معرفة أسباب النزول على التحقيق: وتضمن معرفة سبب النزول الذي يقوم على صحة الرواية إلى رسول الله . صلى الله عليه وسلم .، أو صحة ما نقل عن الصحابة . رضي الله عنهم . الذين عاصروا التنزيل، وصيغ سبب النزول، وأسباب نزول وردت فيها روايات متعددة.

وفي المبحث الثاني: معرفة أسباب النزول بطرق وهمية: وتضمن أسباب نزول يوقع القائل به في خطأ

تاريخي، أو أصلها إخبار عن وقائع ماضية، أو قصص لأمم غابرة، أو في غير زمن أصحابها، وأسباب نزول أصلها أخبار ضعيفة أو مكذوبة، أو بعيدة المعنى.

التمهيد: في تعريف مصطلحات العنوان (أسباب النزول بين التحقيق والوهم):

أسباب النزول:

لتعريف سبب النزول لا بد أن نعرفه تعريفاً لفظياً . مفرداً . أولاً، ثم تعريفاً مركباً باعتبار العلمية . اسم للعلم .

وهو: علم مستقل، أو مبحث خاص من مباحث علوم القرآن ثانياً.

فالتعريف اللفظي كما قال في لسان العرب: (السَّبَبُ هو: الحَبْل الذي يُتَوَصَّل به إلى الماءِ ثم اسْتُعِير لكلّ ما يُتوصَّل به إلى شيءٍ)[4].

وكذا في تعريفات الجرجاني: (السبب في اللغة اسم لما يتوصل به إلى المقصود)[5].

وفي المعجم الوسيط: (السبب: الحبل وكل شيء يتوصل به إلى غيره، وفي التنزيل العزيز: {وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا، فَأَتْبَعَ سَبَبًا} [الكهف:85,84]، والقرابة والمودة ويقال مالي إليك سبَبٌ طريق)[6].

وله تعريف في الاصطلاح وهو: (ما يوصل إلى الشيء ولا يؤثر فيه كالوقت)[7] ، أو هو: (عبارة عما يكون طريقاً للوصول إلى الحكم غير مؤثر فيه)[8].

أما تعريف سبب النزول مركبا . باعتباره عَلَماً . فقد عُرِّفَ بأنه: "ما نزل قرآن بشأنه وقت وقوعه كحادثة أو سؤال"[9]، وأتم من هذا التعريف ما قاله الزرقاني: (هو ما نزلت الآية أو الآيات متحدثة عنه أو مبينة لحكمه أيام وقوعه)[10].

وعلى هذا فسبب النزول يكون قاصرًا على أمرين:

الأول: أن تحدث حادثة فيتنزل القرآن الكريم بشأنها، وذلك كالذي رُوِي عن ابن عباس . رضي الله عنهما . قال: (لما نزلت {وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ} [الشعراء:214]، صعد النبي . صلى الله عليه و سلم . على الصفا فجعل ينادي «يا بني فهر يا بني عدي» لبطون قريش حتى اجتمعوا فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر ما هو، فجاء أبو لهب وقريش، فقال: «أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي» قالوا نعم ما جربنا عليك إلا صدقاً، قال «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد»، فقال أبو لهب: تبا لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا، فنزلت {تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ، مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ} [المسد:2,1])[11]، فكان سبب نزول سورة المسد وقوع حادثة.

الثاني: أن يُسأل رسول الله . صلى الله عليه وسلم . عن شيء فيتنزل القرآن ببيان الحكم فيه، كالذي كان من خولة بنت ثعلبة . رضي الله عنها . عندما ظاهر منها زوجها أوس بن الصامت رضي الله عنه . ، فذهبت تشتكي من ذلك، عن عروة بن الزبير . رضي الله عنه . قال: (قالت عائشة . رضي الله عنهما .: تبارك الذي وسع سمعه كل شيء إني لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة ويخفى عليَّ بعضه وهي تشتكي زوجها إلى رسول الله . صلى الله عليه وسلم . وهي تقول: يا رسول الله أكل شبابي ونثرت له بطني حتى إذا كبرت سني وانقطع ولدي ظاهر مني، اللهم إني أشكو إليك؛ فما برحت حتى نزل جبرائيل بهؤلاء الآيات {قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ...} [المجادلة:1])[12]، فكان سبب نزول صدر سورة المجادلة وقوع سؤال.

وقيد: (ما نزلت الآية أو الآيات متحدثة عنه، أو مبينة لحكمه أيام وقوعه) في التعريف: يخرج عنه الآيات التي تنزل ابتداء، فتتحدث عن قصص الأنبياء،

وأحوال الأمم معهم، أو عن بعض الحوادث الماضية، كسورة «الفيل» مثلاً، أو تتحدث عن مستقبل: كاليوم الآخر وما فيه من نعيم أو عقاب؛ فإن هذه القصص والأحداث لا تعد أسباب نزول؛ فتنبه لذلك، ولا تغلط فيه[13].

فتعريف سبب النزول إذن ينحصر: بـ "ما نزلت الآية، أو الآيات بسببه متضمنة له، أو مجيبة عنه، أو مبينة لحكمه زمن وقوعه"[14]، وعلى هذا التعريف فأسباب النزول ستكون محدودة ومحصورة.

وقد اعتنى العلماء والباحثون بعلوم القرآن بمعرفة أسباب النزول، ولمسوا شدة الحاجة إليه في تفسير القرآن فأفرده جماعة منهم بالتأليف.

وأكثر القرآن الكريم نزل ابتداءً دون أسباب لأهداف عامة، أوضحها وأهمها: أن نزول القرآن جاء ليهدي الإنسانية إلى المحجة الواضحة، وليرشد الأمة إلى الطريق المستقيم، وليقيم لها أسس الحياة الفاضلة التي تقوم دعامتها على الإيمان بالله ورسالاته، وليقرر أحوال الماضي ووقائع الحاضر وأخبار المستقبل.

ولمعرفة أسباب النزول فوائد عديدة تناول ذكرها طائفة من العلماء المحققين، فقالوا عنها: خير سبيل لفهم معاني القرآن، وكشف الغموض الذي يكتنف بعض الآيات في تفسيرها ما لم يُعرف سبب نزولها، ويرفع الإشكال، ويحسم النزاع، ويعين على معرفة المبهم فيها، حتى لا تُحمل على غيره بدافع الخصومة والتحامل، ويبين الحكمة الداعية لتشريع الحكم، وبمعرفة السبب يعرف تاريخ الحكم؛ ليقع تمييز الناسخ من المنسوخ.

قال الشاطبي: (ومعرفة الأسباب رافعة لكل مشكل في هذا النمط؛ فهي . يعني فهم الكلام أو فهم شيء منه . من المهمات في فهم الكتاب بلا بدٍ، ومعنى معرفة السبب هو معنى معرفة مقتضى الحال)[15].

مفهوم التحقيق: التحقيق مأخوذ من (حققت الأمر وأحققته: كنت على يقين منه)[16]، و(الحَقُّ نقيض الباطل ومنه ما جاء في الكتاب العزيز:{ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ} [الأنبياء:18]، وجمعه حُقوقٌ وحِقاقٌ، وحَقَّ الأَمرُ يَحِقُّ ويَحُقُّ حَقّاً وحُقوقاً صار حَقّاً وثَبت)[17].

و(حقق الأمر: أثبته وصدقه، يقال حقق الظن، وحقق القول والقضية والشيء والأمر أحكمه، ويقال: حقق الثوب أحكم نسجه، وصبغ الثوب صبغا تحقيقا مشبعا، وكلام محقق محكم الصنعة رصين)[18].

فالتحقيق: إثبات الحق الذي لا يعتريه بطلان أي: صار كلاما مثبتا محقق الصنعة رصين، يكون صاحبه منه على يقين.

والحقيقةُ: يقابلها المجاز، فالحقيقة: (ما يَحِقّ عليه أن يَحْمِيه، وجمعها الحَقائقُ. **والحقيقةُ:** في اللغة ما أُقِرّ في الاستعمال على أصل وضْعِه، والمَجازُ: ما كان بضد ذلك، وإنما يقع المجاز ويُعدَل إليه عن الحقيقة لمعانٍ ثلاثة وهي: الاتِّساع، والتوكيد، والتشبيه؛ فإن عُدِم هذه الأوصافُ كانت الحقيقة البتَّةَ)[19]، ولهذا فالفرق بين التحقيق والحقيقة واضح.

والوهم: من خَطَراتِ القلب، والجمع أَوْهامٌ، وللقلب وَهْمٌ، وتَوَهَّمَ الشيءَ تخيَّله وتمثَّله كان في الوجود أَو لم يكن، وقال: تَوَهَّمْتُ الشيءَ وتفَرَّسْتُه وتَوسَّمْتُه وتَبَيَّنْتُه بمعنى واحد. يقال: تَوَهَّمْتَ فيَّ كذا وكذا، وأَوْهَمْت الشيء إذا أَغفَلْته، ويقال: وَهِمْتُ في كذا وكذا أي: غلِطْتُ، وأَوْهَمْتُ الشيءَ تركتُه كلَّه، أُوهِمُ وأَوْهَمَ إذا أَسقَط، وَوَهِمَ إذا غَلِط وسها، وفلان أوقعه في الوهم، أي: أدخل عليه الريبة واتهمه به، والشيء تركه كله[20].

فالوهم: قد يكون خيالاً، وقد يكون غفلة، ويوقع في الخطأ والسهو، ونتيجته ريبة، فالوهميات: قضايا

كاذبة . غالبا . يحكم بها الوهم في أمور غير محسوسة[21].

فما كان من أسباب النزول لم يكن ثابتا بالتحقيق فهو قائم على الوهم، ويندرج تحت هذا التصنيف.

المبحث الأول: طريق معرفة أسباب النزول على التحقيق:

المطلب الأول: معرفة سبب النزول يقوم على صحة الرواية إلى رسول الله . صلى الله عليه وسلم :

يعتمد العلماء في معرفة سبب النزول على صحة الرواية عن رسول الله . صلى الله عليه وسلم . أوعن الصحابة، ولا مجال للعقل فيه إلا بالتمحيص والترجيح، فإن إخبار الصحابي عن مثل هذا إذا كان صريحًا لا يكون بالرأي، بل يكون له حكم المرفوع.

قال الواحدي: (لا يحل القول في أسباب نزول الكتاب إلا بالرواية والسماع ممن شاهدوا التنزيل، ووقفوا على الأسباب، وبحثوا عن علمها وجدُّوا في الطلب)[22].

وهذا هو نهج علماء السَّلف، فقد كانوا يتورعون عن أن يقولوا شيئًا في كتاب الله دون علم أو تثبت، قال محمد بن سيرين: (سألت عَبَيدَة: عن آية من القرآن فقال: . اتق الله وقل سدادًا، ذهب الذين يعلمون فيما أنزل الله من القرآن)[23]. وهو يعني الصحابة.

وإذا كان هذا هو قول ابن سيرين من أعلام علماء التابعين تحريًّا للرواية، ودقة في النقل، فإنه يدل على وجوب الوقوف عند أسباب النزول الصحيحة، ولذا فإن المعتمد من ذلك فيما رُوِي من أقوال الصحابة ما كانت صيغته جارية مجرى المسند، بحيث تكون هذه الصيغة جازمة بأنها سبب النزول[24].

وذهب السيوطي إلى أن قول التابعي إذا كان صريحًا في سبب النزول فإنه يُقْبَل، ويكون مُرسلًا، إذا صح المُسْنَد إليه وكان من أئمة التفسير الذين أخذوا عن الصحابة كمجاهد، وعِكرمة، وسعيد بن جبير، واعتضد بمرسل آخر[25]. وتبعه على ذلك بعض أهل العلم[26].

وقد أخذ الواحدي على علماء عصره تساهلهم في رواية سبب النزول، ورماهم بالإفك والكذب، وحذَّرهم من الوعيد الشديد، حيث يقول:(وأما اليوم فكل أحد يخترع شيئاً ويختلق إفكاً وكذباً ملقياً زمامه إلى الجهالة غير مفكر في الوعيد للجاهل بسبب الآية)[27].

فسبب النزول إذا روي عن صحابي فهو مقبول وإن لم يعتضد، أي: لم يعزز برواية أخرى تقويه، وذلك لأن قول الصحابي فيما لا مجال للاجتهاد فيه حكمه حكم المرفوع إلى النبي . صلى الله عليه وسلم .؛ لأنه يبعد كل البعد أن يكون الصحابي قد قال ذلك من تلقاء نفسه على حين أنه خبر لا مورد له إلا السماع والنقل أو المشاهدة والرؤية[28].

وقد عرفنا أن الصحابة . رضي الله عنهم . كانوا منصرفين إلى تلقي القرآن، مشغولين بجمعه في الصدور والسطور، وكان كتاب الله يستغرق جل أوقاتهم، كما يملك عليهم كل مشاعرهم، وكان الوحي ينزل على نبيهم في كل لحظة، أو يمكن . على الأقل . أن ينزل في أي لحظة بالآية والآيات بعد الواقعة أو الواقعات، فأنى لأولئك الصحابة الوقت لمتابعة سبب كل آية! وكيف يتيسر للواحد منهم أن يشهد بنفسه نزول كل آية، وأن يكون دائماً في المكان أو الزمان اللذين نزلت في نطاقهما الآيات! وإذا اندفع بعضهم إلى حفظ كل ما سمعه أو تقييده، فهل يجب أن يكون كل ما حفظه وعلمه متناولاً كل ما يجب أن يحفظ أو يعلم من أسباب النزول؟

إن المنطق السليم ليحكم بأن أحدهم إنما كان يتكلم على معرفته الدقيقة بما تيسر له سماعه بنفسه، ولكننا لا نستبعد أن يكون . هو نفسه . لا يعلم بعض هاتيك

الأسباب، مثلما لا نستبعد أن يكون العلماء بالقرآن قد لا يعلمون الكثير من هذه الأسباب، وأنه كلما امتد بالناس الزمان ازداد جهلهم بها لبعدهم عن الينبوع الصافي النمير، لذلك كان علماء السلف الصالح يتشددون كثيراً في الروايات المتعلقة بأسباب النزول.

المطلب الثاني: صيغ سبب النزول:

قال الزرقاني عن صيغ أسباب النزول: (تختلف عبارات القوم في التعبير عن سبب النزول) [29]. وساق عدداً من التعبيرات أفادها ممن سبقه[30]، ونقلها عنه من جاء بعده[31]، ملخصها فيما يأتي:

1- يصرح فيها بلفظ السبب، فيقال: سبب نزول الآية كذا وهذه العبارة نص في السببية لا تحتمل غيرها، ولم يذكر لهذا التعبير مثالاً.

2- يصرح بلفظ السبب ولكن يؤتى بفاء داخلة على مادة نزول الآية عقب سرد حادثة وهذه العبارة مثل الأولى في الدلالة على السببية . أيضاً . ومثل لها برواية جابر بن عبد الله أن يهودَ كانت تقول إذا أُتِيَت المرأة من دبرها في قبلها ثم حملت كان ولدها أحول؛ قال فأُنْزِلَت: {نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ.} [البقرة:223][32]، على أن رواية جابر جاءت صريحة في الدلالة على السبب.[33]، وأمثلة هذا التعبير كثيرة.

3- لا يعبر بتلك الفاء، ولكن السببية تفهم . قطعا . من المقام؛ كرواية ابن مسعود . رضي الله عنه . عندما سئل النبي . صلى الله عليه وسلم . عن الروح، وحكم هذه . أيضاً . يعني الصيغة . حكم ما هو نص في السببية.

ونص رواية عبدالله بن مسعود . رضي الله عنه . قال: بينا أنا مع النبي . صلى الله عليه و سلم . في حرث وهو متكئ على عسيب؛ إذ مر اليهود، فقال بعضهم لبعض: سلوه عن الروح؟ فقال: ما رابكم إليه؟ وقال بعضهم: لا يستقبلكم بشيء تكرهونه، فقالوا: سلوه، فسألوه عن الروح. فأمسك النبي . صلى الله عليه و سلم . فلم يرد عليهم شيئا، فعلمت أنه يوحى إليه، فقمت مقامي، فلما نزل الوحي، قال: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا} [الإسراء:85][34]، ولهذا التعبير أمثلة . أيضا .

4- لا يصرح بلفظ السبب ولا يؤتى بتلك الفاء ولا بذلك الجواب المبني على السؤال بل يقال: نزلت هذه الآية في كذا مثلا. وهذه العبارة ليست نصاً في السببية بل تحتملها وتحتمل أمرا آخر هو بيان ما تضمنته الآية من الأحكام، والقرائن . وحدها . هي التي تُعَيِّن أحد هذين الاحتمالين أو ترجحه. ومثاله:

عن أسلم أبي عمران التجيبي قال: (كنا بمدينة الروم، فأخرجوا إلينا صفاً عظيماً من الروم، فخرج إليهم من المسلمين مثلهم أو أكثر، وعلى أهل مصر عقبة بن عامر، وعلى الجماعة فضالة بن عبيد، فحمل رجل من المسلمين على صف الروم حتى دخل فيهم، فصاح الناس وقالوا: سبحان الله يلقي بيديه إلى التهلكة. فقام أبو أيوب الأنصاري فقال: . يا أيها الناس إنكم تتأولون هذه الآية هذا التأويل، وإنما أنزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار، لما أعز الله الإسلام وكثر ناصروه، فقال بعضنا لبعض سراً دون رسول الله . صلى الله عليه وسلم . إن أموالنا قد ضاعت، وإن الله قد أعز الإسلام وكثر ناصروه؛ فلو أقمنا في أموالنا فأصلحنا ما ضاع منها، فأنزل الله على نبيه . صلى الله عليه وسلم . يرد علينا ما قلنا: {وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ} [البقرة:195]. فكانت التهلكة: الإقامة على الأموال وإصلاحها، وتركنا الغزو.، فما زال أبو أيوب شاخصاً في سبيل الله حتى دفن بأرض الروم)[35]. ولهذا أمثلة متعددة.

ومن هنا نعلم أنه إذا وردت عبارتان في موضوع واحد إحداهما نص في السببية لنزول آية أو آيات والثانية ليست نصاً في السببية لنزول تلك الآية أو الآيات هنالك؛ نأخذ في السببية بما هو نص، ونحمل الأخرى على أنها بيان لمدلول الآية؛ لأن النص أقوى في الدلالة من المحتمل[36].

أما إذا كان الاختلاف دائراً بين عبارتين، أو عبارات ليس شيء منها نصاً؛ كأن يقول بعض المفسرين: نزلت هذه الآية في كذا. ويقول الآخر: نزلت في كذا، ثم يذكر شيئًا آخر غير ما ذكره الأول، وكان اللفظ يتناولهما ولا قرينة تصرف إحداهما إلى السببية؛ فإن الروايتين كلتيهما تحملان على بيان ما يتناوله من المدلولات، ولا وجه لحملهما على السبب[37].

ويؤكد هذا قول الزركشي: (ومما يذكره المفسرون من أسباب متعددة لنزول الآية قد يكون من هذا الباب لاسيما وقد عرف من عادة الصحابة والتابعين أن أحدهم إذا قال نزلت هذه الآية في كذا فإنه يريد بذلك أن هذه الآية تتضمن هذا الحكم لا أن هذا كان السبب في نزولها وجماعة من المحدثين يجعلون هذا من المرفوع المسند كما في قول ابن عمر في قوله تعالى {نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ} [البقرة:223].

وأما الإمام أحمد فلم يدخله في المسند، وكذلك مسلم وغيره، وجعلوا هذا مما يقال بالاستدلال وبالتأويل فهو من جنس الاستدلال على الحكم بالآية لا من جنس النقل لما وقع)[38].

ولخالد بن سليمان المزيني بحث بعنوان: " المحرر في أسباب نزول القرآن من خلال الكتب التسعة دراسة الأسباب رواية ودراية" نبه فيه على تقسيمات الزرقاني . فقال: (في تقسيمه ذلك إلى صيغة صريحة، وغير صريحة؛ لأنه أول من قسم هذا التقسيم . حسب . علمي . ثم تتابع المؤلفون بعده على ذلك بلا تعقب أو تنبيه)[39].

ثم قال عن الصيغة الصريحة الأولى: (فهذا لا وجود له في الواقع فمع معاصرتي لأسباب النزول طوال مدة البحث، وكثرة تقليبي لها؛ لم أجد سببًا واحدًا وردت فيه هذه الصيغة، كما أن الزرقاني لم يذكر مثالاً لهذا، ولا يخفى أن القواعد إنما تستمد من الأمثلة فأين هي الأمثلة هنا؟.).

وقد أحسن حين قدم اعتذارًا للزرقاني عن التعبير الأول، فقال: (أعتذر للزرقاني هنا بأنه كان يتصور وجود شيء من هذا مع عدم استحضاره للمثال حين الكتابة فسطَّر ما كان يتصور)[40].

وقد اعتمد المزيني في بحثه على الكتب التسعة من كتب الحديث . كما زعم . وهو يتتبع روايات سبب النزول فيها، فخلص إلى هذه النتيجة، وهو جهد مبارك . وأزعم أن الصواب حليفه . ولعل أصحاب علوم القرآن يعتمدون في استقراء قواعدهم وضوابطهم باستعمال تعبيراتهم من خلال بعض كتب التفسير؛ حيث يجد القارئ نماذج متعددة لديهم بتلك التعبيرات التي أوردها الزرقاني، دون إسناد بعضهم لشيء منها. والذي يظهر لي أن صيغة سبب النزول غير مقيدة بصيغة محددة . صريحة، وغير صريحة . كما يتناقلها بعض أهل العلم المتأخرين في كتبهم، وأن التعبير بها ورد بأساليب متغايرة ومضطربة، وسأذكر بعض الأمثلة لتأكيد ما أقول:

1- قال الله تعالى: {وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ} [البقرة:154]. قال الواحدي: نزلت في قتلى بدر من المسلمين.[41]، ولنفس الآية عن ابن عباس قال: قتل تميم بن الحمام ببدر وفيه وفي غيره نزلت {وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ} [البقرة:154][42].

2- وعن محمد بن كعب القرظي: (أن رسول الله .

صلى الله عليه وسلم . ما زال يُحْرس، يحارسه أصحابه، حتى أنزل الله {وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ} [المائدة: 67]، فترك الحرس حين أخبره أنه سيعصمه من الناس) [43].

3- وعن عائشة . رضي الله عنهما . قالت: (فلما أنزل الله هذا في براءتي . تعني آيات الإفك . قال أبو بكر. رضي الله عنه . وكان ينفق على مسطح بن أثاثة لقرابته منه وفقره: "والله لا أنفق على مسطح شيئاً أبداً بعد الذي قال لعائشة ما قال."، فأنزل الله {وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ} [النور: 22]، إلى قوله {رَحِيمٌ} قال أبو بكر: "والله إني أحب أن يغفر الله لي"، فرجع إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه) [44].

4- عن أبي بزرة الأسلمي . رضي الله عنه . قال: (فيَّ نزلت هذه الآية {لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ، وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ} [البلد:2,1]، خرجت فوجدت عبد الله بن خطل متعلقاً بأستار الكعبة فضربت عنقه بين الركن والمقام) [45].

5- عن جابر بن عبدالله . رضي الله عنه . قال: (فينا نزلت . في بني حارثة، وبني سلمة: {إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا} [آل عمران:122] وما يسرني أنها لم تنزل لقول الله {وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا} [46].

6- عن أبي عبيدة، أن عبد الله بن مسعود . رضي الله عنه . قال: (ما زال النبي . صلى الله عليه وسلم . مستخفياً حتى نزل {فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ} [الحجر:94] فخرج هو وأصحابه.) [47].

7- عن ابن عمر . رضي الله عنه .: (أن زيد بن حارثة مولى رسول الله . صلى الله عليه وسلم . ما كنا ندعوه إلا زيد بن محمد، حتى نزل القرآن: {ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ} [الأحزاب:5]، فقال النبي . صلى الله عليه وسلم .: «أنت زيد بن حارثة بن شراحيل») [48].

8- عن أنس . رضي الله عنه . قال: (كانت الأنصار يكرهون السعي بين الصفا والمروة حتى نزلت هذه الآية: {إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ} [البقرة:158] فالطواف بينهما تطوّع) [49].

9- عن أبي ذر . رضي الله عنه . قال: قال رسول الله . صلى الله عليه وسلم . «من صام ثلاثة أيام من كل شهر فذلك صيام الدهر، فأنزل الله تصديق ذلك في كتابه: {مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا} [الأنعام:165] اليوم بعشرة أيام» [50].

10- إن أنسًا . رضي الله عنه . قال: قيل للنبي . صلى الله عليه وسلم .: لو أتيت عبد الله بن أبي، فانطلق إليه النبي . صلى الله عليه وسلم . وركب حمارًا وانطلق المسلمون يمشون معه، وهي أرض سبخة، فلما أتاه النبي . صلى الله عليه وسلم . فقال: إليك عني، والله لقد آذاني نتن حمارك، فقال رجل من الأنصار منهم: والله لحمار رسول الله أطيب ريحًا منك، فغضب لعبد الله رجل من قومه فتشاتما، فغضب لكل واحد منهما أصحابه، فكان بينهم ضرب بالجريد والأيدي والنعال، فبلغنا أنها نزلت: {وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا} [الحجرات:9] [51].

11- عن عروة بن الزبير أن الزبير . رضي الله عنه ، كان يحدث: أنه خاصم رجلًا من الأنصار . قد شهد بدرًا . إلى النبي . صلى الله عليه و سلم . في شراج الحرة كانا يستقيان بها كلاهما، فقال النبي . صلى الله عليه و سلم . للزبير . رضي الله عنه . اسق ثم أرسل إلى جارك، فغضب الأنصاري، وقال يا رسول الله أن كان ابن عمتك، فتلون وجه رسول الله . صلى الله عليه و سلم . ثم قال للزبير . رضي الله عنه . اسق ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجدر، فاستوعى النبي . صلى الله عليه و سلم . حينئذ للزبير حقه، وكان النبي

. صلى الله عليه و سلم . قبل ذلك أشار على الزبير . رضي الله عنه . برأي أراد فيه سعة له وللأنصاري، فلما أحفظ الأنصاري رسول الله . صلى الله عليه و سلم . استوعى رسول الله . صلى الله عليه و سلم . للزبير حقه في صريح الحكم، قال عروة: فقال الزبير . رضي الله عنه . والله ما أحسب هذه الآية أنزلت إلا في ذلك: {فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} [النساء:65] (52).

فهذه الأمثلة التي ذكرتها من خلال استعمال المفسرين لها تنوعت الألفاظ والصيغ فيها لسبب النزول فكان من استعمالاتهم: **نزلت**، حتى **أنزل اللَّه**، **فأنزل الله**، فيَّ نزلت هذه الآية، **فينا نزلت**، **حتى نزل**، حتى نزل القرآن، **حتى نزلت هذه الآية**، فأنزل الله تصديق ذلك في كتابه، **فبلغنا أنها نزلت**، **ما أحسب هذه الآية أُنزلت إلا في ذلك**.

علما أن ما ذكر الزرقاني من ألفاظ عُبِّر بها عن أسباب النزول هي المستعملة غالبا، ومع كثرتها وتعددها تجد منها ما يكون سبباً حقاً، ومنها ما ليس كذلك مما يشير إلى أن الأسلوب المستعمل في التعبير عن النزول ليس أُسًّا ينتفي السبب بانتفائه، ويبقى ببقائه حتى عند مستعمليه.

وعلى هذا فإن الذي يُعْتَمَد في أسباب النزول هو: ما رفع إلى النبي . صلى الله عليه وسلم . وصح سنده ومتنه، وساعدت القرائن على أن حدثا نزل القرآن بشأنه وقت وقوعه، وبالضوابط التي اعتمدها المحدثون والأصوليون، فيكون بهذا الاعتبار هو السبب الحقيقي للنزول.

المطلب الثالث: أسباب نزول وردت فيها روايات متعددة:

قد تأتي روايتان في نازل واحد من القرآن الكريم، وذكرت كل من الروايتين سبباً صريحاً غير ما تذكره الأخرى، نُظِرَ فيهما:

فإما أن تكون إحداهما صحيحة، والأخرى غير صحيحة.

وإما أن تكون كلتاهما صحيحة ولكن لإحداهما مرجح دون الأخرى.

وإما أن تكون كلتاهما صحيحة ولا مرجح لإحداهما على الأخرى، ولكن يمكن الأخذ بهما معا.

وإما أن تكون كلتاهما صحيحة، ولا مرجح، ولا يمكن الأخذ بهما معا. فتلك صور أربع لكل منها حكم خاص نسوق كل صورة بحكمها فيما يلي:

الصورة الأولى: وهي ما صحت فيه إحدى الروايتين دون الأخرى؛ فحكمها الاعتماد على الصحيحة في بيان السبب، وردُّ الأخرى غير الصحيحة. ومثاله:

عن الأسود بن قيس قال سمعت جندبًا يقول: (اشتكى النبي . صلى الله عليه وسلم . فلم يقم ليلة أو ليلتين فأتته امرأة فقالت: ـ يا محمد ما أرى شيطانك إلا قد تركك . فأنزل الله عز وجل: {وَالضُّحَى، وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى، مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى.} [الضحى:1-3](53).

وعن حفص بن سعيد القرشي، حدثتني أمي عن أمها، وكانت خادم رسول الله . صلى الله عليه و سلم . : أن جروا دخل البيت، ودخل تحت السرير، ومات، فمكث نبي الله . صلى الله عليه و سلم . أيامًا لا ينزل عليه الوحي. فقال: «يا خولة ما حدث في بيت رسول الله ؟ جبريل لا يأتيني فهل حدث في بيت رسول الله حدث؟!» فقلت: والله ما أتى علينا يوم خير من يومنا، فأخذ برده فلبسه وخرج فقلت: لو هيأت البيت وكنسته، فأهويت بالمكنسة تحت السرير فإذا شيء ثقيل فلم أزل حتى أخرجته فإذا بجرو ميت فأخذته بيدي فألقيته خلف الدار. فجاء نبي الله ترعد لحيته، وكان إذا أتاه الوحي أخذته الرعدة. فقال: «يا خولة دثريني» فأنزل الله: {وَالضُّحَى، وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى، مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى.} [الضحى:1-3](54). فإذا نظرنا بين هاتين الروايتين نقدم الرواية الأوْلَى في بيان السبب؛ لصحتها دون الثانية؛ لأن في إسناد الثانية من لا يعرف. قال ابن حجر: (وقصة

إبطاء جبريل بسبب كون الكلب تحت سريره مشهورة؛ لكن كونها سبب نزول هذه الآية غريب، بل شاذ مردود بما في الصحيح)[55].

الصورة الثانية: وهي صحة الروايتين كلتيهما، ولإحداهما مرجح؛ فحكمها أن نأخذ في بيان السبب بالراجحة دون المرجوحة، والمرجح أن تكون إحداهما أصح من الأخرى، أو أن يكون راوي إحداهما مشاهداً للقصة دون راوي الأخرى. ومثاله:

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: كنت مع النبي . صلى الله عليه وسلم . في حرث بالمدينة وهو يتوكأ على عسيب، فمر بنفر من اليهود، فقال بعضهم: سلوه عن الروح، وقال بعضهم: لا تسألوه لا يسمعكم ما تكرهون؛ فقاموا إليه فقالوا: يا أبا القاسم حدثنا عن الروح، فقام ساعة ينظر، فعرفت أنه يوحى إليه، فتأخرت عنه حتى صعد الوحي، ثم قال: {قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا.} [الإسراء:85][56].

عن ابن عباس قال قالت قريش ليهود أعطونا شيئا نسأل هذا الرجل فقال سلوه عن الروح قال فسألوه عن الروح فأنزل الله تعالى: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا} [الإسراء:85]، قالوا أوتينا علما كثيرا، أوتينا التوراة ومن أوتي التوراة فقد أوتي خيرا كثيرا، فأنزلت: {قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ...}، إلى آخر الآية [الكهف: 109][57].

فالخبر الثاني يدل على أن الآية نزلت بمكة وأن سبب نزولها سؤال قريش للرسول . صلى الله عليه وسلم ..

أما الخبر الأول فصريح في أن نزول الآية كان بالمدينة بسبب سؤال اليهود للرسول . صلى الله عليه وسلم . وهو أرجح من وجهين: أحدهما أنه رواية البخاري، أما الثاني فإنه رواية الترمذي، ومن المقرر أن ما رواه البخاري أصح مما رواه غيره. ثانيهما أن راوي الخبر الأول هو ابن مسعود كان مشاهد القصة من أولها إلى آخرها كما يدل على ذلك الخبر الأول، بخلاف الخبر الثاني فإن راويه ابن عباس لا يدل الخبر على أنه كان حاضر القصة ولا شاهدها، ولا ريب أن للمشاهدة قوة في التحمل وقوة في الأداء وقوة في الاستيثاق ليست لغير المشاهدة ومن هنا أعملنا الخبر الأول وأهملنا الخبر الثاني.

الصورة الثالثة: وهي ما استوت فيه الروايتان في الصحة، ولا مرجح لإحداهما، لكن يمكن الجمع بينهما، بأن كلّاً من السببين حصل، ونزلت الآية عقب حصولهما معاً؛ لتقارب زمنيهما، فحكم هذه الصورة أن نحمل الأمر على تعدد السبب؛ لأنه الظاهر، ولا مانع يمنعه. ومثاله:

عن ابن عباس . رضي الله عنهما . أن هلال بن أمية قذف امرأته عند النبي . صلى الله عليه وسلم . بشريك ابن سحماء فقال النبي صلى الله عليه وسلم .: «البينة أو حد في ظهرك» فقال يا رسول الله: إذا رأى أحدنا على امرأته رجلًا ينطلق يلتمس البينة، فجعل النبي . صلى الله عليه وسلم . يقول: «البينة وإلا حد في ظهرك» فقال هلال والذي بعثك بالحق إني لصادق؛ فلينزلن الله ما يبرئ ظهري من الحد، فنزل جبريل وأنزل عليه: {وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ} [النور:6] فقرأ حتى بلغ: {إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ} [النور:9] [58].

وعن سهل بن سعد: (أن عويمرا أتى عاصم بن عدي، وكان سيد بني عجلان، فقال كيف تقولون في رجل وجد مع امرأته رجلًا؛ أيقتله فتقتلونه، أم كيف يصنع، سل لي رسول الله . صلى الله عليه وسلم . عن ذلك فأتى عاصم النبي . صلى الله عليه وسلم . فقال يا رسول الله، فكره رسول الله . صلى الله عليه وسلم . المسائل فسأله عويمر، فقال: إن رسول الله . صلى الله عليه وسلم . كره المسائل وعابها، قال عويمر: والله لا أنتهي حتى أسأل رسول الله . صلى الله عليه وسلم .

عن ذلك فجاء عويمر فقال: يا رسول الله رجل وجد مع امرأته رجلًا؛ أيقتله فتقتلونه أم كيف يصنع؟! فقال رسول الله . صلى الله عليه وسلم . «قد أنزل الله القرآن فيك وفي صاحبتك» فأمرهما رسول الله . صلى الله عليه وسلم . بالملاعنة؛ بما سمى الله في كتابه، فلاعنها)[59].

فهاتان الروايتان صحيحتان ولا مرجح لإحداهما على الأخرى، ومن السهل أن نأخذ بكلتيهما؛ لقرب زمانيهما على اعتبار أن أول من سأل هو هلال بن أمية، ثم قفاه عويمر قبل إجابته، فسأل بواسطة عاصم مرة، وبنفسه مرة أخرى، فأنزل الله الآية إجابة للحادثين معًا. ولا ريب أن إعمال الروايتين بهذا الجمع أولى من إعمال إحداهما وإهمال الأخرى؛ إذ لا مانع يمنع الأخذ بهما على ذلك الوجه. ثم لا جائز أن نردهما معًا؛ لأنهما صحيحتان ولا تعارض بينهما، ولا جائز . أيضًا . أن نأخذ بواحدة ونرد الأخرى؛ لأن ذلك ترجيح بلا مرجح. فتعين المصير إلى أن نأخذ بهما معا. وإليه جنح النووي[60]، وسبقه إليه الخطيب[61]، فقال: لعلهما اتفق لهما ذلك في وقت واحد.

ويمكن أن يفهم من الرواية الثانية أن آيات الملاعنة نزلت في هلال أولا، ثم جاء عويمر فأفتاه الرسول بالآيات التي نزلت في هلال. قال ابن الصباغ: قصة هلال تبين أن الآية نزلت فيه أولا. وأما قوله صلى الله عليه وسلم لعويمر: «إن الله أنزل فيك وفي صاحبتك» فمعناه ما نزل في قصة هلال لأن ذلك حكم عام لجميع الناس[62].

الصورة الرابعة: وهي استواء الروايتين في الصحة دون مرجح لإحداهما ودون إمكان للأخذ بهما معاً لبعد الزمان بين الأسباب؛ فحكمها أن نحمل الأمر على تكرار نزول الآية بعدد أسباب النزول التي تحدثت عنها هاتان الروايتان أو تلك الروايات؛ لأنه إعمال لكل رواية ولا مانع منه، ومثاله:

عن أبي هريرة . رضي الله عنه . أن النبي . صلى الله عليه و سلم . يوم أحد نظر إلى حمزة وقد قتل ومثل به فرأى منظرا لم ير منظرا قط أوجع لقلبه منه ولا أوجل. فقال: « رحمة الله عليك فقد كنت وصولا للرحم، فعولا للخيرات، ولولا حزن من بعدك عليك؛ لسرني أن أدعك حتى تجيء من أفواج شتى . ثم حلف وهو واقف مكانه . والله لأمثلن بسبعين منهم مكانك»، فنزل القرآن وهو واقف في مكانه لم يبرح بعد: {وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ} [النحل:126]، حتى تختم السورة فكفر رسول الله . صلى الله عليه و سلم . وأمسك عما أراد[63].

وعن أبي بن كعب قال: (لما كان يوم أحد؛ قتل من الأنصار أربعة وستون رجلًا، ومن المهاجرين ستة ، فقال أصحاب رسول الله . صلى الله عليه و سلم: لئن كان لنا يوم مثل هذا من المشركين لَنُرْبِيَنَّ عليهم، فلما كان يوم الفتح قال رجل لا يُعرف: لا قريش بعد اليوم، فنادى منادي رسول الله . صلى الله عليه وسلم . أَمِنَ الأسودُ والأبيضُ، إلا فلانًا وفلانًا ناسًا سماهم، فأنزل الله تبارك وتعالى: { وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ} [النحل:126]، فقال رسول الله . صلى الله عليه و سلم .:«نصبر ولا نعاقب»)[64].

فالرواية الأولى تفيد أن الآية نزلت في غزوة أحد، والثانية تفيد أنها نزلت يوم فتح مكة. على حين أن بين غزوة أحد والفتح الأعظم بضع سنين، فبعد أن يكون نزول الآية كان مرة عقيبهما معًا. وإذن لا مناص لنا من القول بتعدد نزولها مرة في أحد، ومرة يوم الفتح. وقد ذهب البعض إلى أن سورة النحل كلها مكية.

قال الزركشي: (وقد ينزل الشيء مرتين تعظيمًا لشأنه، وتذكيرًا به عند حدوث سببه خوف نسيانه. وهذا كما قيل في الفاتحة نزلت مرتين مرة بمكة، وأخرى بالمدينة)[65].

تلك أنماط من مقاييس المفسرين المحققين في ترجيح الروايات المنبئة عن أسباب النزول.

وقد تفردت هذه المقاييس –كما رأينا– بدقة المصطلح، وحصافة النقد، ولطف التذوق، وبراعة التخريج، وبذلك كله تيسر لهؤلاء الأئمة الثقات أن يضعوا أيديهم على مفاتيح أسباب النزول بنجوة من غلو الغلاة، وعجلة المتسرعين، وخوضهم فيما لا طائل تحته من أوهام المؤرخين، إذ جعلوا درس القرآن فوق روايات التاريخ، مثلما جعلوه فوق علم التفسير وقواعد اللغة والبيان[66].

المبحث الثاني: معرفة أسباب النزول بطرق وهمية:

المطلب الأول: أسباب نزول يوقع القائل به في خطأ تاريخي، أو أصلها إخبار عن وقائع ماضية، وقصص لأمم غابرة، أو في غير زمن أصحابها:

أولع كثير من المفسرين بتطلب أسباب نزول آي القرآن، وهي حوادث يروى أن آيات من القرآن نزلت لأجلها لبيان حكمها أو لحكايتها أو إنكارها أو نحو ذلك، وأغربوا في ذلك، وأكثروا حتى كاد بعضهم أن يوهم الناس أن كل آية من القرآن نزلت على سبب، وحتى رفعوا الثقة بما ذكروا.

بيد أنا نجد في بعض آي القرآن إشارة إلى الأسباب التي دعت إلى نزولها ونجد لبعض الآي أسبابًا ثبتت بالنقل دون احتمال أن يكون ذلك رأي الناقل، فكان أمر أسباب نزول القرآن دائرًا بين القصد والإسراف، وغض النظر عنه، وإرسال حبله على غاربه؛ خطر عظيم في فهم القرآن.

وقد استكثر المتقدمون من أسباب النزول . وهم معذورون بذلك . فألَّفُوا فيها، وكان كل من يتصدى لتأليف كتاب في موضوع غير مشبع تمتلكه محبة التوسع فيه فلا ينفك يستزيد من ملتقطاته ليذكي قبسه، ويمد نفسه . وكذلك شأن الولع إذا امتلك القلب . ولكن لا عذر لأساطين المفسرين الذين تلقفوا الروايات الضعيفة فأثبتوها في كتبهم ولم ينبهوا على مراتبها قوة وضعفًا، حتى أوهموا كثيرًا من الناس أن القرآن لا تنزل آياته إلا لأجل حوادث تدعو إليها، . وبئس هذا الوهم . فإن القرآن جاء هاديًا إلى ما به صلاح الأمة في أصناف الصلاح فلا يتوقف نزوله على حدوث الحوادث الداعية إلى تشريع الأحكام[67].

ومن الإفراط في علم سبب النزول أن نتوسع فيه؛ دون تحقيق ولا ضوابط، ونجعل منه ما هو من قبيل الإخبار عن الأحوال الماضية، والوقائع الغابرة، أسباب نزول، بل كان القرآن يتنزل ابتداءً، بعقائد الإيمان، وواجبات الإسلام، وشرائع الله تعالى في حياة الفرد، وحياة الجماعة، وكثير من الآيات التي اشتملت على الأحكام والآداب، التي قصد بها ابتداءً هداية الخلق، وإرشادهم إلى ما فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة، دون أسباب نزول.

قال السيوطي: (والذي يتحرر في سبب النزول أنه ما نزلت الآية أيام وقوعه، فليس من أسباب النزول في شيء، ما كان من باب الإخبار عن الوقائع الماضية، كذكر قصة قوم نوح، وعاد، وثمود، وبناء البيت، ونحو ذلك، وكذلك ذكره في قوله: {وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا} [النساء:125] سبب اتخاذه خليلًا، فليس ذلك من أسباب نزول القرآن كما لا يخفى)[68].

وقد ظهر عند بعض المفسرين أنهم يذكرون أسباب النزول في حادثة تاريخية سابقة لنزول القرآن، وفعل مثل هذا معترض عليه واقعًا وعلمًا، وصاحبه أو قائله قد وقع في خطأ تاريخي واضح هذا من جهة، ومن جهة أخرى أن الحادثة تأتي إخباراً عن وقائع ماضية، أو أنها قصص لأمم غابرة!! أو يقال إنها نزلت لكن في غير زمن أصحابها. فكيف يؤتى لها بسبب نزول؟، ولذلك أمثلة في بعض كتب التفسير نذكر

بعض النماذج فيما يلي:

النموذج الأول: قال الله تعالى: { وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ} [البقرة:76]، قال ابن عباس ومقاتل: نزلت في السبعين الذين اختارهم موسى ليذهبوا معه إلى الله تعالى، فلما ذهبوا معه سمعوا كلام الله تعالى وهو يأمر وينهى، ثم رجعوا إلى قومهم، فأما الصادقون فأدوا ما سمعوا، وقالت طائفة منهم: سمعنا الله من لفظ كلامه يقول: إن استطعتم أن تفعلوا هذه الأشياء فافعلوا، وإن شئتم فلا تفعلوا ولا بأس.[69]، فالقول بأن الآية نزلت في موسى . عليه السلام . وقومه مستبعد وغير واقعي؛ لأن الستار في قصة موسى وقومه قد أسدل من زمن بعيد تجاوز القرون والأجيال المتعاقبة!. وأن نزولها في زمن النبي . صلى الله عليه وسلم . وأصحابه؛ أقل ما يقال: عنها أنها جاءت لفضح المنافقين.

وأضاف الواحدي قوله: (وعند أكثر المفسرين نزلت الآية: في الذين غيروا آية الرجم . يعني أهل الكتاب . وصفة محمد . صلى الله عليه وسلم.)، وهذا التأويل يبدو أنه أقرب إلى السياق القرآني والتاريخي.

النموذج الثاني: قال الله تعالى: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ} [البقرة:114]، فهذه الآية يقال عنها: (أنها نزلت في الروم، كانوا ظاهروا بختنصر على خراب بيت المقدس من أجل أن بني إسرائيل قتلوا يحيى بن زكريا، فخُرِّب وطرحت الجيف فيه. قاله: ابن عباس في آخرين.)، ذكره ابن الجوزي[70]، وذكر الثعلبي نحوه عند تفسيره الآية نفسها فقال: (نزلت في ططيوس بن استيسانوس الرّومي وأصحابه وذلك إنّهم غزوا بني إسرائيل فقتلوا مقاتليهم وسبوا ذراريهم وحرقوا التّوراة وخرّبوا بيت المقدس وقذفوا فيه الجيف وذبحوا فيه الخنازير وكان خرابًا إلى أن بناه المسلمون في أيّام عمر بن الخطّاب)[71].

ولصبحي الصالح تعليق حسن على من ذكر مثل هذا النوع من أسباب النزول، وعلى رأسهم الواحدي حين ذكر سبب نزول الآية نفسها ، فقال: (فيذكر اتحاد النصارى مع بختنصر على تخريب بيت المقدس مع أن حادثة بختنصر هذا وقعت قبل ميلاد المسيح بستمائة وثلاث وثلاثين سنة ... و . أن . دخول طيطوس بيت المقدس وتخريبها وقع بعد المسيح بسبعين سنة. . ثم ساق تفسير ابن عباس الثاني للآية فقال: . وفي التفسير الأخير قول ابن عباس . أيضًا . ولكن من رواية عطاء: "نزلت في مشركي أهل مكة، ومَنْعِهمُ المسلمين من ذكر الله . تعالى . في المسجد الحرام"، وابن عباس يشير بهذا إلى قصة عمرة الحديبية، وربما بدا هذا التأويل للوهلة الأولى أقرب إلى السياق القرآني والتاريخي، أو . ربما . بدا على الأقل أكثر احتمالًا من حادثة طيطوس، إذ طال على هذه الأمد فلا مناسبة لأن تكون هي المقصودة بالآية. ولكن يعترض على هذا التأويل بأن مشركي العرب عمروا المسجد الحرام في جاهليتهم، وعدوه مناط عزهم وفخرهم، وما سعوا في خرابه قط، فلا تقصدهم الآية إلا في ناحية واحدة: وهي منعهم النبي . صلى الله عليه وسلم . وأصحابه من دخول مكة في عمرة الحديبية... ويمكن التماس العذر له . يعني الواحدي . فيه بحمل قوله على أدريانال الروماني الذي سماه اليهود "بختنصر الثاني" وقد جاء بعد المسيح بمائة وثلاثين سنة، وبنى مدينة على أطلال أورشليم وزينها وجعل فيها الحمامات، وبنى هيكلا للمشتري على أطلال هيكل سليمان، وحرم على اليهود دخول المدينة، وجعل جزاءَ من يدخلها القتل)[72]- إلى أن قال : (ولو استعرضنا نظائر هذه الأخطاء التاريخية التي حُمِلَت حملًا على أسباب النزول، وأنطقت القرآن

بما لم ينطق، لطال بنا الاستعراض، وامتد بنا التجوال، وإنما ننتهزها فرصة لنضع أيدينا على السر الكامن وراء هذه الأخطاء . فهو في نظرنا ظن أكثر العلماء . أنه لا بد لكل آية من سبب نزول حتى في وقائع الأمم الماضية التي دفنت معها أسبابها ونتائجها، وطويت في رموسها مقدماتها وعواقبها، فإن كان لزامًا التماس سبب نزول لها فليكن متعلقًا بالأحياء على عهد الرسول الكريم . صلى الله عليه وسلم . سواء أكانوا من المؤمنين، أم من المشركين، أم من أهل الكتاب.

فبدلًا من أن يقال في الآية التي نحن فيها: إن سبب نزولها دخول بختنصر أو طيطوس بيت المقدس لتخريبه، تلقي نظرة فاحصة على السياق القرآني قبلها فيلاحظ أنه كان خطابًا لأهل الكتاب عامة ومن على شاكلتهم وأنه بالضرورة

ما يبرح خطابًا لهم ولأمثالهم، يستنكر كل حادثة تنتهك فيها حرمات المعابد سواء أوقعت في عهدهم أم في عهد أسلافهم، وسواء أصدرت عنهم أم عن غيرهم، وسواء أوقعت حقا أو سوف تقع، أم يمكن أن تقع، فخطابهم بالآية لا يرمي إلى تعيين الأشخاص أو الأمكنة أو الأزمنة، وإنما يتناول وعيدًا شديدًا لكل من تحدثه نفسه بتخريب المعابد في أي زمان أو مكان! وإيثار مثل هذا التأويل ينقذ المفسر من الخبط الأعمى في أسباب النزول)[73].

ولعل استعمالهم ذلك هو نفس ما نبه إليه الزركشي من أن المقصود بالنزول بيان معنى الآية هنا[74].

وكان الأولى بهؤلاء الأعلام أن يستنبطوا من الآية: أن فيها وعيداً عاماً لكل من يستهينون بالمعابد، ويعطلون الشعائر، وينتهكون الحرمات، ويسعون في خراب بيوت الله، ومنع العباد من دخولها، أو إعمارها.

النموذج الثالث: قال الله تعالى: {لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ.} [المائدة:78]، عن أبي عبيدة قال، قال رسول الله . صلى الله عليه وسلم . : «إن بني إسرائيل لما وقع فيهم النقصُ، كان الرجل يرى أخاه على الرَّيْبِ فينهاه عنه، فإذا كان الغدُ، لم يمنعه ما رأى منه أن يكون أكيله وشريبه وخليطه، فضرب الله قلوبَ بعضهم ببعض».

ونزل فيهم القرآن فقال: {لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ...} حتى بلغ {...وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ.} [المائدة:78–81]، قال: وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم متكئًا فجلس، وقال: «لا حتى تأخذوا على يَدَيِ الظالم فتأطروه على الحق أطرًا»)[75].

هكذا أورده الطبري في سبب نزول هذه الآية بنصه، والآية تتحدث عن الكافرين الملعونين على لسان داود، وعيسى ابن مريم . عليهما السلام .

ومن المعلوم أن دهراً طويلاً كان بين النبيَّيْن الكريمين عليهما السلام . وبين النبي محمد . صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . فكيف ينزل قرآن بسبب قوم أذنبوا قبل نزوله بقرون.

وبناءً على ما تقدم يكون المراد بقوله: "ونزل فيهم القرآن"، أي: نزل القرآن في الحديث عنهم كما نزل كثيراً في الحديث عن الأمم السابقة، ومثل هذا ليس محسوباً من الأسباب المعتبرة .

النموذج الرابع: قال الله تعالى: {وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ} [المائدة:83] عن عبد الله بن الزبير قال: نزلت في النجاشي وأصحابه: {وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ }[76]. وقصة النجاشي وبكاؤه ليست سبباً لنزول الآية باعتبار ما نحتسب من الأسباب؛ لما بين نزول الآية وموت النجاشي من الزمن، حيث يعد نزول سورة المائدة من أواخر ما نزل من القرآن، وموت النجاشي كان سابقا.

النموذج الخامس: قول الله عز وجل: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ} [الأنعام:93] أنها نزلت في مسيلمة، والأسود العنْسيّ، قاله قتادة [77].

قال الواحدي: (نزلت . يعني: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا} . في مسيلمة الكذاب الحنفي كان يسجع ويتكهن ويدعي النبوة ويزعم أن الله أوحى إليه)[78]، وفيه بعد؛ لبعد زمن نزول الآية عن دعوى مسيلمة الكذاب النبوة، إلا أن يكون هذا من إدراج التفسير بمسمى أسباب النزول، كعادة كثير من المفسرين.

النموذج السادس: قول الله تعالى {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا...} الآية [الأعراف: 175].

قال ابن مسعود: نزلت في بلعم بن باعورا رجل من بني إسرائيل. وقال ابن عباس وغيره من المفسرين: هو بلعم بن باعورا. وقال الوالبي: هو رجل من مدينة الجبارين يقال له بلعم وكان يعلم اسم الله الأعظم فلما نزل بهم موسى . عليه السلام . أتاه بنو عمه وقومه، وقالوا: إن موسى رجل حديد ومعه جنود كثيرة، وإنه إن يظهر علينا يهلكنا فادع الله أن يرد عنا موسى ومن معه. قال: إني إن دعوت الله أن يرد موسى ومن معه ذهبت دنياي وآخرتي؛ فلم يزالوا به حتى دعا عليهم، فسلخه مما كان عليه فذلك قوله تعالى (فَانسَلَخَ مِنها)[79].

فدعوى نزول الآية في بلعوم، مستبعد لطول الأمد ما بين زمنه ووقت نزول القرآن، وبلعم بن باعورا كان في عهد نبي الله موسى . عليه السلام . وفي النص ما يشير إلى أن ما قاله ابن عباس . رضي الله عنه . هو من تفسير معنى الآية، وليس سبب نزول.

النموذج السابع: قال الله تعالى: {أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ} [الحديد:16]، أنها نزلت في قوم موسى . عليه السلام قبل أن يبعث النبي . صلى الله عليه وسلم . ، قاله ابن حيان.[80]، وكم من الزمن بين موسى . عليه السلام . ونزول القرآن، إنه يحتسب بالقرون.

النموذج الثامن: سورة الفيل: قال الواحدي: (سورة الفيل بسم اللَّهِ الرحمن الرحيم. نزلت في قصة أصحاب الفيل وقصدهم تخريب الكعبة وما فعل الله بهم من إهلاكهم وصرفهم عن البيت وهي معروفة)[81].

قال السيوطي عن كلام الواحدي في سبب نزول سورة الفيل: (والذي يتحرر في سبب النزول: أنه ما نزلت الآية أيام وقوعه؛ ليخرج ما ذكره الواحدي في سورة الفيل، من أن: سببها قصة قدوم الحبشة به، فإن ذلك ليس من أسباب النزول في شيء، بل هو من باب الإخبار عن الوقائع الماضية، كذكر قصة قوم نوح، وعاد، وثمود)[82].

ولعل اعتذارنا لهؤلاء الأساطين من المفسرين في ذكرهم لبعض هذه النماذج وما شاكلها على أنها أسباب نزول، بحملها على أن ذلك كان منهم بيان لما تتناوله الآيات من المدلولات. ولا وجه لحملها على السبب.

كما قال الزركشي: (ومما يذكره المفسرون من أسباب متعددة لنزول الآية قد يكون من هذا الباب لاسيما وقد عرف من عادة الصحابة والتابعين أن أحدهم إذا قال نزلت هذه الآية في كذا فإنه يريد بذلك أن هذه الآية تتضمن هذا الحكم لا أن هذا كان السبب في نزولها)[83]، وقول ابن تيمية: (وقولهم نزلت هذه الآية في كذا: يراد به تارة أنه سبب النزول، ويراد به تارة أن هذا داخل في الآية وإن لم يكن السبب، كما تقول عنى بهذه الآية كذا)[84].

المطلب الثاني: أسباب نزول أصلها أخبار ضعيفة أو مكذوبة، أو بعيدة المعنى:

أصيب التفسير بضعف لأسباب عدة أبرزها: ضعف السند، ودخول الإسرائيليات فيه، والقصص المخترع، أما ضعف السند في أسباب النزول عند المفسرين؛ فلأن بعضهم ألَّفوا في التفسير، واختصروا الأسانيد، ونقلوا الأقوال غير معزوَّة لقائليها، ولم يتحروا الصحة فيما يروون، فدخل من هنا الدخيل، والتبس الصحيح بالعليل، ثم صار كل مَنْ يسنح له قول يورده، ومَنْ يخطر بباله شيء يعتمده، ثم ينقل ذلك عنه مَنْ يجيء بعده، ظاناً أنَّ له أصلاً، غير ملتفت إلى تحرير ما ورد عن السَلَف[85].

وهذا السبب . أعني ضعف السند . يكاد يكون أخطر الأسباب جميعاً، لأن ضعف الأسانيد؛ جعل مَنْ ينظر في هذه الكتب يظن صحة كل ما جاء فيها، وجعل الكثير من المفسِّرين ينقلون عنها ما فيها من أسباب النزول؛ على أنه صحيح كله، مع أن فيها ما يخالف النقل ولا يتفق مع العقل، نسوق بعض النماذج فيما يلي:

النموذج الأول: قال الله تعالى: {إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ} [البقرة:119]،

عن محمد بن كعب القرظي قال: (قال رسول الله . صلى الله عليه وسلم .: "ليت شعري ما فعل أبواي؟ ليت شعري ما فعل أبواي؟ ليت شعري ما فعل أبواي؟" ثلاثًا ، فنزلت:{إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ}، فما ذكرهما حتى توفاه الله)[86] ؛

وقول محمد بن كعب هذا على تأويل الذين قرأوا {ولا تَسأَلْ} جزمًا. بمعنى النهي، مفتوح "التاء" من "تسأل"، وجزم "اللام" منها. ومعنى ذلك على قراءة هؤلاء: إنا أرسلناك بالحق بشيرًا ونذيرًا؛ لتبلغ ما أرسلت به؛ لا لتسأل عن أصحاب الجحيم، فلا تسأل عن حالهم.

علق أحمد محمد شاكر على الحديث[87]، فقال: محمد بن كعب بن سليم القرظي: تابعي، وحديثه مرسل لا تقوم به حجة، ثم إن سند الحديث ضعيف جدًا؛ لضعف راويه: موسى بن عبيدة بن نشيط الربذي، ويقال عنه منكر الحديث.[88]، وعليه فلا يكون سببًا لنزول الآية.

ووجه الطبري معنى الآية على قراءة عامة القراء بضم "التاء" من "تسئل"، ورفع "اللام" منها على الخبر، فقال: (بمعنى: يا محمد إنا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا، فبلغت ما أرسلت به، وإنما عليك البلاغ والإنذار، ولست مسئولًا عمن كفر بما أتيته به من الحق، وكان من أهل الجحيم)[89]، وبهذا المعنى فلا علاقة لسبب النزول بالآية؛ لبعده عنه أولا، ولضعف الرواية ثانيا.

النموذج الثاني: قال الله تعالى: {وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ} [الأنفال:30].

قيل إن أبا طالب قال للنبي . صلى الله عليه و سلم . ما يأتمر بك قومك ؟ قال: يريدون أن يحبسوني، أو يخرجوني، أو يقتلوني، قال من حدثك بهذا ؟ قال: ربي، قال نعم الرب ربك، فاستوصي به خيرا، قال: أنا أستوصي به؟! بل هو يستوصي بي، فنزلت {وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا...} الآية[90].

قال ابن كثير: ذكر أبي طالب فيه غريب، بل منكر؛ ... لأن القصة ليلة الهجرة، وذلك بعد موت أبي طالب بثلاث سنين[91].

وعن ابن عبَّاسٍ . رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا . في قوله: {وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ} قال: (تشاورت قريش ليلةً بمكة، فقال بعضهم: إذا أصبح، فأثبتوه بالوثاق. يريدون النبي . صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . وقال بعضهم: بل اقتلوه.

وقال بعضهم: بل أخرجوه. فأطلع الله . عَزَّ وَجَلَّ . نبيه على ذلك، فبات عليٌّ . رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ . على فراش النبي . صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . تلك الليلة، وخرج النبي . صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . حتى لحق بالغار، وبات المشركون يحرسون علياً يحسبونه النبي . صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

فلما أصبحوا ثاروا إليه، فلما رأوا علياً، رد الله مكرهم، فقالوا: أين صاحبك هذا؟ قال: لا أدري. فاقتصوا أثره، فلما بلغوا الجبل خُلِط عليهم فصعدوا في الجبل، فمرُّوا بالغار، فرأوا على بابه نسج العنكبوت، فقالوا: لو دخل

هاهنا، لم يكن نسج العنكبوت على بابه، فمكث فيه ثلاث ليالٍ)[92]. أورد السمرقندي معناه[93]، على أنه سبب نزول الآية، وليس فيه ذكر سبب النزول، فالآية تتحدث عن مكر قريش بالنبي . صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . حبساً أو قتلاً أو نفياً وإخراجاً، وهذا إخبار عن أحداث وقعت، ولا شيء يدل على أن الآية نزلت بسبب تلك القصة، بل الدليل يدل على أن هذا المكر والتشاور كان بمكة، ومن يزعم أن سبب نزولها تلك الحادثة في مكة فقد أبعد النجعة، وإنما ما جاء في الآية إخبار عن حدث وقع في مكة، والآية مدنية، ولهذا قال البغوي عند تفسيره الآية: (واذكر إذ يمكر بك الذين كفروا وإذ قالوا اللهم؛ لأن هذه السورة مدنية وهذا المكر والقول إنما كانا بمكة، ولكن الله ذكرهم بالمدينة، كقوله تعالى: (إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ) [التوبة:40])[94]، وقال ابن أبي حاتم: (وأنزل عليه بعد قدومه المدينة في الأنفال، يذكر نعمته عليه وبلاءه عنده: {وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ} [الأنفال:30])[95].

وذِكْرُ نزول آية مدنية بسبب قصة مكية خلاف المعهود عند العلماء في سبب النزول. ثم إن ابن عبَّاسٍ . رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا . لم يذكر سبب النزول ولم يصرح به بل ذكر الآية من باب التفسير لها؛ بالإضافة إلى أن الحديث ضعيف الإسناد فلا يحتج به على سبب النزول.

النموذج الثالث: قال اللَّه تعالى: (وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ [الحجر:24]، أورد بعض المفسرين سَبَب نُزُولِ هذه الآية: ما جاء عن ابن عبَّاسٍ . رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا . قال: (كانت امرأة حسناءُ تصلي خلف رسول الله . صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . قال: . فكان بعض القوم يستقدم في الصف الأول لئلا يراها، ويستأخر بعضهم حتى يكون في الصف المؤخر، فإذا ركع نظر من تحت إبطيه فأنزل الله في شأنها: (وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ)[96].

قال ابن كثير: (وَهَذَا الْحَدِيثُ فِيهِ نَكَارَةٌ شَدِيدَةٌ،... فَالظَّاهِرُ أَنَّهُ مِنْ كَلَامِ أَبِي الْجَوْزَاءِ فَقَطْ، لَيْسَ فِيهِ لِابْنِ عَبَّاسٍ ذِكْرٌ)[97]، وسياق الآيات ليس بينه وبين الحديث صلة، ويؤكده تأويل ابن جرير الطبري للآيات حين قال: (معنى ذلك: ولقد علمنا من مضى من الأمم، فتقدّم هلاكهم، ومن قد خلق وهو حيّ، ومن لم يخلق بعدُ ممن سيخلق)[98]، وهو تأويل حسن، ثم إن في الخبر مخالفة لسياق الآيات، كما أن فيه طعناً لأصحاب رسول اللَّه . صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. ولا يحل الطعن فيهم بحال، فكيف يكون ما تضمنه سبب نزول؟!.

النموذج الرابع: قال الله تعالى: {وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ} [الإسراء:29]، قال جابر: إني صبي فقال: يا رسول الله إن أمي تستكسيك درعا ولم يكن لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم . إلا قميصه فقال للصبي: من ساعة إلى ساعة يظهر، فعد وقتا آخر، فعاد إلى أمه، فقالت: قل له إن أمي تستكسيك الدرع الذي عليك فدخل رسول الله . صلى الله عليه وسلم . داره فنزع قميصه فأعطاه إياه وقعد عريانا فأذن بلال بالصلاة فانتظروه فلم يخرج فشغل قلوب أصحابه فدخل عليه بعضهم فرآه عريانا فأنزل الله تعالى: {وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ})[99]. وفي هذا الخبر من الضعفاء ما يجعله مردودا لا يقبل، كما أنه فيه من التجني على النبي . صلى الله عليه وسلم . وأصحابه ببعض ألفاظه كما ترى، ناهيك أن يكون سبب نزول مقبولاً.

النموذج الخامس: قال الله تعالى: {أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} [العنكبوت:51]، عن يحيى بن جعدة قال: أتي النبي . صلى الله عليه و سلم . بكتف فيه كتاب فقال: "كفى بقوم ضلالًا أن يرغبوا عما جاء به نبيهم، إلى ما جاء به نبي غير نبيهم، أو كتاب غير كتابهم" فأنزل الله . عز و جل .: {أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ} الآية.[100]، فالحديث المذكور ليس سبباً لنزول الآية؛ وهو ضعيف السند، ثم هو

بعيد عن سياق الآيات؛ كونها تتحدث عن قوم كافرين جاحدين مرتابين، وقد قال اللَّه قبلها: {وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ} [العنكبوت:50].

النموذج السادس: قال الله تعالى: {الم، غُلِبَتِ الرُّومُ، فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ، فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ.} [الروم:1-4]، عن أبي سعيد قال: (لما كان يوم بدر ظهرت الروم على فارس فأعجب ذلك المؤمنون فنزلت: {الم، غُلِبَتِ الرُّومُ} إلى قوله: {يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ}، قال ففرح المؤمنون بظهور الروم على فارس)[101]، وهذا الخبر قال عنه الترمذي: غريب، لكن سورة الروم مكية باتفاق العلماء، ولم يكن منها ما نزل في مكة، والقصة والسبب على اعتبار أنه كان في بدر، وسياق القرآن يأبى ذلك. ومعلوم أن الآية نزلت في مكة بعد أن غلبت الفرسُ الرومَ، فحزن لذلك المؤمنون، وفرح الكافرون، فبشر الله المؤمنين بأن الدائرة للروم على الفرس في بضع سنين فتم ما أخبر الله به، فلا يتم أن يكون ذلك سبب نزول لا من حيث السياق، ولا من حيث واقعية الخبر وصحته.

النموذج السابع: قال الله تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ.} [لقمان:6]، عن أبي أمامة عن رسول الله . صلى الله عليه وسلم . قال: " لا تبيعوا القينات، ولا تشتروهن، ولا تعلموهن، ولا خير في تجارة فيهن وثمنهن حرام" في مثل هذا أنزلت هذه الآية: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ}[102]، ساق أبو بكر ابن العربي عددا من الأحاديث على أنها سبب نزول للآية ومنها الخبر المذكور، ثم قال بعد ذلك: (هَذِهِ الْأَحَادِيثُ الَّتِي أَوْرَدْنَاهَا لَا يَصِحُّ مِنْهَا شَيْءٌ بِحَالٍ، لِعَدَمِ ثِقَةِ نَاقِلِيهَا إلَى مَنْ ذُكِرَ مِنْ الْأَعْيَانِ فِيهَا.)[103]، قال ابن كثير: (علي، وشيخه، والراوي عنه، كلهم ضعفاء. والله أعلم)[104]، فالحديث المذكور ليس سبباً لنزول الآية؛ لضعف سنده أولا، كما أنه ليس صريحًا في سبب النزول ثانيا.

ومثل هذه النماذج هي التي كان السلف يتورعون عن ذكرها وإيرادها في ضمن أسباب النزول في كتب التفسير، وإنما يتحرون الدقة في الرواية والنقل والتزام الوقوف عند أسباب النزول الصحيحة.

اللهم نور قلوبنا بالقرآن، واجعله لنا ضياء، اشرح به صدورنا، وزكي به نفوسنا، واهدنا للعمل به، والاحتكام إليه، وأعنا للتعبد بتلاوته، واجعلنا هداة مهتدين، واجعله صلاحا لذرياتنا وجميع أبناء المسلمين يا رب العالمين.

الخاتمة:

وقفت . بعد حمد الله وتوفيقه . من خلال تتبعي لهذه الدراسة بعنوان: **(أسباب النزول بين التحقيق والوهم)**، على عدد من النتائج التي توصلت إليها على النحو الآتي:

1- أن معرفة سبب النزول يعد خير سبيل لفهم معاني القرآن، ويكشف الغموض الذي يكتنف تفسير بعض الآيات، ويرفع الإشكال، ويحسم النزاع، ويعين على معرفة المبهم من القرآن.

2- أن المعتمد في أسباب النزول هو ما صح سنده ومتنه، وساعدت القرائن على فهمه واعتباره، بضوابط المحدثين والأصوليين، فيكون سبب نزول على التحقيق.

3- أن ما اصطلح عليه بعض المفسرين من أن استعمال صيغ أسباب النزول كقولهم نزلت، فنزلت، ... يعتبر من أن المعنى مناسب للسبب، أو يكون من بيان الحكم، وليس سببا على التحقيق.

4- أن ما يذكره بعض المفسرين من حوادث تاريخية سابقة لنزول القرآن، أو حادثة يظهر فيها خطأ تاريخي، أو إخبار عن وقائع ماضية، أو أنها قصص لأمم غابرة!! أو يقال أنها نزلت لكن في غير زمن أصحابها، ليس من أسباب النزول في شيء.

5- أن ما يذكره بعض المفسرين من أسباب النزول، وأصلها أخبار ضعيفة، أو مكذوبة، أو بعيدة المعنى، فليس من أسباب النزول في شيء كذلك.

6- أن أكثر القرآن كان يتنزل ابتداء، بعقائد الإيمان، وواجبات الإسلام، وشرائع الله تعالى في حياة الفرد، وحياة الجماعة، دون أسباب نزول.

الهوامش:

(1) أخرجه ابن ماجة في سننه: 1/ 253: ك: المقدمة: ب: فضل من تعلم القرآن وعلمه: ح: (214)، صحيح في سلسلة الأحاديث الصحيحة:281/5: ح: (2239).

(2) أسباب النزول:2، للواحدي.

(3) التحرير والتنوير:46/1، لابن عاشور.

(4) لسان العرب: 455/1، لابن منظور، مادة: (سبب).

(5) التعريفات:154/1، للجرجاني.

(6) المعجم الوسيط: 411/1، لإبراهيم مصطفى، وآخرين، مادة: (سبب).

(7) التعريفات:154/1، للجرجاني.

(8) المعجم الوسيط: 411/1، لإبراهيم مصطفى، وآخرين، مادة: (سبب).

(9) انظر: مباحث في علوم القرآن: 75، للقطان.

(10) مناهل العرفان في علوم القرآن:106/1.

(11) أخرجه البخاري في صحيحه: 1787/4: ك: التفسير: ب: تفسير سورة الشعراء {وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ} [الشعراء:214]: ح: (4492)، وانظر: الدر المنثور في التفسير بالمأثور:378/10، للسيوطي.

(12) أخرجه ابن ماجة في سننه:244/6: ك: النكاح: ب: الظهار: ح: (2053)، والحاكم في المستدرك:523/2: ك: التفسير: ب: تفسير سورة المجادلة: ح: (3791)، والبيهقي في السنن الكبرى:382/7: ك: الظهار: ب: سبب نزول آية الظهار: ح: (15020).

(13) انظر: المدخل لدراسة القرآن الكريم:132، لأبي شهبة.

(14) انظر: مباحث في علوم القرآن: 132، لصبحي الصالح.

(15) الموافقات:146/4، للشاطبي.

(16) أساس البلاغة:93، للزمخشري، مادة: (حقق).

(17) لسان العرب:49/10، لابن منظور، مادة: (حقق).

(18) المعجم الوسيط:188/1، مادة: (حقق).

(19) لسان العرب:49/10، لابن منظور، مادة: (حقق).

(20) انظر: لسان العرب:643/12، لابن منظور، مادة: (وهم).

(21) انظر: التعريفات:330، للجرجاني، مادة: (وهم).

(22) أسباب النزول: 3.

(23) نفسه .

(24) مباحث في علوم القرآن:76، للقطان.

(25) انظر: الإتقان في علوم القرآن: 94/1.

(26) انظر: مناهل العرفان في علوم القرآن:114/1.

(27) أسباب النزول: 4.

(28) انظر: مناهل العرفان في علوم القرآن:114/1.

(29) مناهل العرفان في علوم القرآن:114/1- 115.

(30) انظر: البرهان في علوم القرآن:115/1، والإتقان:93/1.

(31) انظر: مباحث في علوم القرآن:127، لصبحي الصالح، ومباحث في علوم القرآن:85، القطان.

(32) أخرجه مسلم في صحيحه: 7/ 299: ك: النكاح: ب: جواز جماعه امرأته في قبلها من قدامها ومن ورائها من غير تعرض للدبر: ح: (2593).

(33) أنظر: مناهل العرفان في علوم القرآن:114/1- 115.

(34) أخرجه البخاري في صحيحه: 1749/4: ك: التفسير: ب: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ}: ح: (4444).

(35) أخرجه الترمذي في سننه: 232/10: ك: التفسير: ب: ومن سورة البقرة: ح: (2898)، و أبو داود في سننه: 66/4: ك: الصوم: ب: في قوله تعالى: {ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة} [البقرة:195]: ح: (2512)، والبيهقي في السنن الكبرى: 45/9: ب: مَا جَاءَ فِي قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ {وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلاَ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ}: ح: (18383)، قال أبو عيسى هذا حديث حسن صحيح غريب.

(36) انظر: مناهل العرفان في علوم القرآن:114/1- 115، بتصرف.

(37) انظر: مناهل العرفان في علوم القرآن:116/1.

(38) البرهان في علوم القرآن:31/1-32، وانظر: الإتقان:93/1.

(39) المحرر في أسباب نزول القرآن من خلال الكتب التسعة دراسة الأسباب رواية ودراية: 114/1.

(40) نفسه: 115/1.

(41) الوجيز 41/1، للواحدي.

(42) الدر المنثور: 310/1، اكتفيت بذكر الرواية من الدر المنثور، للسيوطي؛ لأنه نقل عن كتب الحديث والتفسير، والمقصود هنا الأمثلة، والاستعمال وليس التصحيح والرد.

(43) الدر المنثور: 420/3.

(44) الدر المنثور: 251/7.

(45) الدر المنثور: 267/10.

(46) الدر المنثور: 420/2.

(47) نفسه.

(48) الدر المنثور: 123/8.

(49) الدر المنثور: 320/1.

(50) الدر المنثور: 178/4.

(51) معالم التنزيل:340/7 ، للبغوي.

(52) أخرجه أحمد في مسنده:165/1: ح: (1419)، إسناده صحيح على شرط الشيخين، تعليقات الأرنؤوط.

(53) أخرجه البخاري في صحيحه:380/15: ك: فضائل القرآن: ب: كيف نزل الوحي وأول ما نزل: ح: (4600).

(54) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير:249/24: ح: (636)، قال الألباني في السلسلة الضعيفة: إسناد ضعيف.

(55) فتح الباري شرح صحيح البخاري: 810/8، لابن حجر، (قوله باب ما ودعك ربك وما قلى) وذكره السيوطي في لباب النقول: 230.

(56) أخرجه البخاري في صحيحه: 265/22: ك: الاعتصام بالكتاب

والسنة: ب: ما يكره من كثرة السؤال وتكلف ما لا يعنيه: ح: (6753)، والترمذي في جامعه:415/10: ك: التفسير: ب: ومن سورة بني إسرائيل: ح: (3066).

(57) أخرجه الترمذي في جامعه: 414/10: ك: التفسير: ب: ومن سورة بني إسرائيل: ح: (3065)، قال الألباني في صحيح أبي داود: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

(58) أخرجه البخاري في صحيحه:396/14: ك: : ب: {ويدرأ عنها العذاب أن تشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين}: ح: (4378)..

(59) أخرجه البخاري في صحيحه:392/14: ك: التفسير: ب: قول الله: {والذين يرمون أزواجهم}: ح: (4376).

(60) انظر: شرح النووي على مسلم:120/10: ك: اللعان.

(61) نقله عنه السيوطي في الإتقان:97/1، والزرقاني في شرح الموطأ:245/3.

(62) انظر: مناهل العرفان:119/1.

(63) المعجم الكبير:143/3: ح: (2937).

(64) أخرجه أحمد في مسنده:135/5: ح: (21267)، والترمذي في جامعه:402/10: ك: : ب: : ح: (3054)، والنسائي في سننه الكبرى:376/6: ك: التفسير: ب: قوله تعالى: {وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به}: ح: (11279)، قال الألباني في صحيح وضعيف سنن الترمذي: حسن صحيح الإسناد.

(65) البرهان في علوم القرآن:29/1.

(66) انظر: مباحث في علوم القرآن: 148، لصبحي الصالح.

(67) انظر: مقدمات تفسير ابن عاشور: المقدمة الخامسة: 44/1.

(68) الإتقان في علوم القرآن:98/1.

(69) أسباب النزول:18، للواحدي، وانظر: معالم التنزيل:113/1، للبغوي.

(70) زاد المسير: 114/1، لابن الجوزي.

(71) في الكشف والبيان عن تفسير القرآن:260/1–261، للثعلبي، وانظر: بحر العلوم:86/1، للسمرقندي، عن الكلبي. وأسباب النزول: 20، للواحدي، وكذا في تفسيره الوجيز: 31/1، و في معالم التنزيل: 138/1، للبغوي.

(72) مباحث في علوم القرآن:137– 138، لصبحي.

(73) مباحث في علوم القرآن:140,139.

(74) سبق ذكره في المطلب الثاني من المبحث الأول.

(75) جامع البيان في تأويل آي القرآن: 493/10 ح: (12309)، قال عنه الألباني: ضعيف.

(76) جامع البيان في تأويل آي القرآن: 509/10 ح: (12326).

(77) ذكره في زاد المسير: 376/2. وابن كثير: 302/3. والسمرقندي:2/ 59. الوجيز:196/1، للواحدي. الثعلبي: 169/4. الماوردي: 423/1.

(78) أسباب النزول: 154، للواحدي، وانظر: الدر المنثور:99/4، للسيوطي، وتفسير البغوي:168/3.

(79) أسباب النزول: 159، للواحدي، وانظر: بحر العلوم: 163/2، للسمرقندي، والدر النثور:369/4، للسيوطي.

(80) النكت والعيون: 236/4، الماوردي.

(81) أسباب النزول: 259، للواحدي.

(82) لباب النقول: 13، للسيوطي.

(83) البرهان في علوم القرآن:31/1–32، وانظر: الإتقان:93/1.

(84) مقدمة في أصول التفسير:48، لابن تيمية.

(85) انظر: التفسير والمفسرون:22/4، للذهبي.

(86) أخرجه الطبري في جامع البيان في تأويل آي القرآن:558/2: خ: (1876)، والبغوي في معالم التنزيل:143/1.

(87) هامش تفسير الطبري نفسه.

(88) انظر: تقريب التهذيب:983/1، لابن حجر.

(89) جامع البيان في تأويل آي القرآن:558/2.

(90) لباب النقول في أسباب النزول: 106.

(91) تفسير القرآن العظيم:44/4.

(92) أخرجه أحمد في مسنده: 348/1: ح:(3251) ضعفه الألباني.

(93) في بحر العلوم:18/2.

(94) معالم التنزيل:349/3.

(95) تفسير القرآن العظيم:1687/5، لابن أبي حاتم.

(96) زاد المسير في علم التفسير:532/2، و أخرجه أحمد في مسنده:305/1: ح: (2784)، إسناده ضعيف، ومتنه منكر، والترمذي:394/10: ك: التفسير: ب: ومن سورة الحجر: ح: (3047).

(97) تفسير القرآن العظيم:532/4.

(98) جامع البيان: 89/17 .

(99) ذكره الواحدي في أسباب النزول: 165، والبغوي في تفسيره:90/5، قال الحافظ ابن حجر في "الكافي الشاف" على هامش الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل:662/2، للزمخشري: " لم أجده "، وإذا صدرت هذه العبارة من أحد الحفاظ كابن حجر وغيره كانت كافية في الحكم على الحديث بالوضع.

(100) أخرجه الدارمي في سننه:134/1: ك: المقدمة: ب: من لم ير كتابة الحديث: ح: (478).

(101) أخرجه: الترمذي في سننه:182/10: ك: التفسير: ب: ومن سورة الروم: ح: (2859) قال الألباني: حسن.

(102) أخرجه: الترمذي في سننه: 87/5: ك: البيوع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: ب: ما جاء في كراهية بيع المغنيات: ح: (1203)، وقال: حديث غريب.

(103) أحكام القرآن:282/6 –283.

(104) تفسير القرآن العظيم:331/6.

قائمة المصادر والمراجع:

1- الإتقان في علوم القرآن، عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد، السيوطي، أبو الفضل، (المتوفى:911هـ).

2- أحكام القرآن، لمحمد بن عبد الله، أبو بكر بن العربي، المعافري الاشبيلي المالكي: (المتوفى:543هـ)، راجع أصوله وخرج أحاديثه وعلَّق عليه: محمد عبد القادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة: الثالثة:1424هـ / 2003 م.

3- أسباب النزول، لعلي بن أحمد الواحدي، النيسابوري، أبو الحسن، (المتوفى:468هـ)، الناشر: المكتبة الثقافية . بيروت . لبنان. دون تاريخ نشر.

4- بحر العلوم، المعروف بـ (تفسير السمرقندي)، نصر بن محمد بن إبراهيم، السمرقندي، الفقيه الحنفي، أبو الليث، (المتوفى:393هـ)، الناشر: دار الفكر . بيروت . لبنان، تحقيق: د. محمود مطرجي.

5- البرهان في علوم القرآن، محمد بن عبد الله بن بهادر، بدر الدين، الزركشي، (المتوفى:794هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم الناشر: دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابى الحلبي وشركائه، الطبعة: الأولى: 1376 هـ . 1957 م.

6- التحرير والتنوير، المعروف بتفسير ابن عاشور، لمحمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور، التونسي، (المتوفى:1393هـ)، الناشر: مؤسسة التاريخ العربي، بيروت . لبنان . الطبعة: الأولى: 1420هـ / 2000م.

7- التعريفات، علي بن محمد، الجرجاني، (المتوفى:816 هـ)، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي . بيروت، الطبعة الأولى سنة (1405 هـ).

8- تفسير القرآن العظيم مسندا عن الرسول . صلى الله عليه وسلم . و الصحابة و التابعين، عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن المنذر، التميمي، الحنظلي، الرازي، ابن أبي حاتم: (المتوفى: 327هـ)، تحقيق: أسعد محمد الطيب، الناشر: مكتبة نزار مصطفى الباز - المملكة العربية السعودية، الطبعة: الثالثة: 1419هـ.

9- تفسير القرآن العظيم، لإسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، أبو الفداء، (ت 774 هـ) مكتبة النهضة الحديثة الطبعة الأولى: سنة (1384 هـ 1965 م).

10- التفسير والمفسرون، محمد بن حسين الذهبي، (المتوفى:1977م)، الناشر: مكتبة وهبة، الطبعة السابعة: 2000م.

11- تقريب التهذيب، أحمد بن علي بن حجر، العسقلاني، الشافعي، أبو الفضل، (المتوفى: 852هـ)، تحقيق محمد عوامة، الناشر: دار الرشيد، سوريا، تاريخ: 1406هـ . 1986م.

12- جامع البيان في تأويل آي القرآن، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، الطبري، أبو جعفر، (المتوفى:310هـ)، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى:1420 هـ /2000 م، تحقيق: أحمد محمد شاكر.

13- الجامع الصحيح، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخاري، الجعفي، أبو عبدالله، (المتوفى: 256 هـ)، الناشر: دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي) الطبعة: الأولى: 1422هـ، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر.

14- الدر المنثور في التأويل بالمأثور، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين، السيوطي (المتوفى: 911هـ)، الناشر: دار الفكر - بيروت.

15- زاد المسير في علم التفسير، لجمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد، الجوزي، أبو الفرج، (المتوفى:597هـ)، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، الناشر: دار الكتاب العربي . بيروت، الطبعة الأولى: 1422هـ.

16- سنن الترمذي (جامع الترمذي)، لمحمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى، (المتوفى: 279هـ)، تحقيق: بشار عواد معروف، الناشر: دار الغرب الإسلامي . بيروت، سنة النشر:1998م.

17- سنن أبي داود، لسليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو، الأزدي، السِّجِسْتاني، (المتوفى:275هـ): تحقيق: شعَيب الأرنؤوط، ومحَمَّد كامِل قره بللي، الناشر: دار الرسالة العالمية، الطبعة: الأولى:1430 هـ - 2009 م.

18- سنن الدارمي، عبدالله بن عبدالرحمن أبو محمد الدارمي، الناشر : دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة الأولى: 1407هـ، تحقيق : فواز أحمد زمرلي ، خالد السبع العلمي.

19- السنن الكبرى، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْ جِردي الخراساني، أبو بكر، البيهقي (المتوفى: 458هـ)، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت . لبنات، الطبعة: الثالثة، 1424 هـ . 2003 م.

20- سنن ابن ماجه، محمد بن يزيد، القزويني، أبو عبدالله، (المتوفى:273هـ)، الناشر : دار الفكر - بيروت، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي.

21- سنن النسائي الكبرى، لأحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي، أبو عبد الرحمن، (المتوفى: 303هـ)، حققه وخرج أحاديثه: حسن عبد المنعم شلبي، أشرف عليه: شعيب الأرناؤوط، قدم له: عبد الله بن عبد المحسن التركي، الناشر: مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة: الأولى، 1421 هـ - 2001 م.

22- شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك، محمد بن عبد الباقي بن يوسف الزرقاني، (المتوفى: 1122هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، سنة النشر:1411هـ.

23- صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج القشيريّ، النيسابوريّ، أبو الحسن، (المتوفى:261هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي . بيروت، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي.

24- فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر، العسقلاني، الشافعي، أبو الفضل، (المتوفى: 852هـ)، الناشر: دار المعرفة، بيروت: الطباعة: 1379هـ.

25- الكافي الشاف، أحمد بن علي بن حجر، العسقلاني، الشافعي، أبو الفضل، (المتوفى: 852هـ)، بهامش الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، للزمخشري، الناشر: دار الكتاب العربي.

26-الكشف والبيان عن تفسير القرآن، أحمد بن محمد بن إبراهيم، الثعلبي، أبو إسحاق، (المتوفى: 427هـ)، تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشور، مراجعة وتدقيق: الأستاذ نظير الساعدي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى: 1422هـ - 2002 م.

27- لباب النقول في أسباب النزول، عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد، السيوطي، أبو الفضل، (المتوفى:911هـ) الناشر: دار إحياء العلوم . بيروت . لبنان.

28- لسان العرب، لمحمد بن مكرم بن منظور الأفريقي، المصري،(المتوفى:711 هـ)، دار صادر، لبنان . بيروت . الطبعة الأولى.

29- مباحث في علوم القرآن، صبحي الصالح، الناشر: دار العلم للملايين، الطبعة: الرابعة والعشرون: كانون الثاني/ يناير :2000م.

30- مباحث في علوم القرآن، مناع القطان، الناشر: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الطبعة: الثالثة: 1421هـ . 2000م.

31- مجموع الفتاوى، أحمد بن عبد الحليم، تقي الدين، بن تيمية الحراني، أبو العباس، تحقيق: أنور الباز . عامر الجزار، الناشر: دار الوفاء، الطبعة: الثالثة: 1426 هـ / 2005 م.

32- المحرر في أسباب نزول القرآن من خلال الكتب التسعة دراسة الأسباب رواية ودراية، خالد بن سليمان المزيني، الناشر: دار ابن الجوزي، الدمام . المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، (1427 هـ . 2006م.

33-المدخل لدراسة القرآن الكريم، محمد بن محمد بن سويلم أبو شُهبة (المتوفى: 1403هـ)، الناشر: مكتبه السنة . القاهرة، مصر، الطبعة: الثانية: 1423 هـ . 2003 م.

34- المستدرك على الصحيحين، محمد بن عبدالله، الحاكم النيسابوري، أبو عبدالله، الناشر : دار الكتب العلمية . بيروت . لبنان، الطبعة: الأولى: 1411 هـ . 1990م، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا.

35- مسند الإمام أحمد، أحمد بن حنبل، الشيباني، (المتوفى:241هـ)، مؤسسة قرطبة – القاهرة، تعليق: شعيب الأرنؤوط.

36-معالم التنزيل في تفسير القرآن، المعروف بتفسير البغوي، الحسين بن مسعود، محيي السنة، أبو محمد، البغوي، (المتوفى:510هـ)، حققه وخرج أحاديثه: محمد عبد الله النمر . عثمان جمعة ضميرية . سليمان مسلم الحرش، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الرابعة: 1417 هـ . 1997 م.

37- المعجم الكبير، سليمان بن أحمد بن أيوب، الطبراني، أبو القاسم، (المتوفى:360 هـ)، الناشر: مكتبة العلوم والحكم . الموصل، الطبعة الثانية: 1404 هـ . 1983م، تحقيق: حمدي بن عبدالمجيد السلفي.

38- المعجم الوسيط، إعداد: مجمع اللغة العربية، إبراهيم مصطفى . أحمد الزيات . حامد عبد القادر . محمد النجار: . الناشر : دار الدعوة.

39- مقدمة في أصول التفسير، أحمد بن عبدالحليم، ابن تيمية، تقي الدين، شيخ الإسلام، (المتوفى:728هـ)، تحقيق: عدنان زرزور، الطبعة الثانية: 1392هـ . 1972م.

40- مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم، الزرقاني، (المتوفى : 1367هـ)، الناشر: مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، الطبعة: الثالثة.

41- المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، يحيى بن شرف بن مري، النووي، أبو زكريا، (المتوفى: 676 هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الثانية:1392هـ.

42- الموافقات، إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي، الغرناطي، الشهير بالشاطبي، (المتوفى:790هـ)، تحقيق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، الناشر: دار ابن عفان، الطبعة الأولى: 1417هـ/ 1997م.

43- النكت والعيون المعروف بتفسير الماوردي، علي بن محمد بن حبيب، الماوردي، البصري، أبو الحسن، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت / لبنان، تحقيق: السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم.

44- الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي، أبو الحسن، (المتوفى:468هـ)، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، الناشر: دار القلم، الدار الشامية – دمشق، بيروت، الطبعة: الأولى: 1415 هـ.

Asbab Al-Nuzool (Occasions or Circumstances of Revelation(between Investigation and Illusion

Abdullah Mohammad Saeed Alkhawlani

Abstract

This study investigates a topic entitled: Asbab Al-Nuzool (Occasions or Circumstances of Revelation) between Investigation and Illusion. Knowing the occasions and circumstances of revelation of the Quran verses is considered to be the best way to understand the meaning of the Quran; and to reveal the ambiguity that surround the interpretation of some verses. It also remove the problematic vagueness, resolve the dispute, and helps to recognize the vagueness of the Quran. Some interpreters, however, elaborated on the reasons of revelation and proved that in their books, but they did not pay attention to the level of the authenticity of these narrations (strong or weak). This made many people think that Quran Verses were not revealed without occasions.Thus this paper attempts to differentiate between the real occasions of revelation and the illusive ones. The real occasions of revelation are those based on correct and authentic narrations that are attributed to the prophet Mohammed (peace be upon him). The illusive occasions of revelation came from suspect sources. The researcher tackled some of these narrations and showed that they prove the historical incorrectness of their narrators since these narrations are originally events and stories of old nations and some of them happened in times not contemporary to the time of their narrators.